أسامة بن منقذ

تأليف : دكتور أحمد كمال زكي

مقدمة

على بعد خمسة عشر ميـــلا شمال غربى حماة ، وفى أباطح شاسعة الجنبات يتخللهـا نهر العاصى .. ثمـة هضبة سماها المؤرخون العرب ((عرف الديك)) وقد أقيمت فوقها قلعة أحاطها ذلك النهر من جهات ثلاث تاركا غربيها ليد الانسان تحفره خندقا فى الصخر الغليظ .

وسميت هذه القلعة باسم الاقليم الذى أقيمت فيه ، وآلت الى بنى منقذ الكنانيين بعـد أن تداولها كل من الروم البيزنطيين والفرس والأمويين والمرادسيين . واذا كانت الكتب الكلاسيكية الغربية تذكرها باســم ((سنزار)) أو ((سيزار)) أو ((زنزار)) أو ((سيزاريا)) فقد سماها امرؤ القيس ومن بعـده عبيد الله ابن قيس الرقيات ((شيزر)) ودرجت الكتب العربية الى اليوم على استخدام تلك التسمية .

أما الاقليم فكان كورة من عدة قرى وبلد ومدينـة ، وأشهر القرى كفر نبوذا وبندر قنين فى الشمال ومعرزف فى الجنوب ، وأما البلد فهو منازل الأهلين التى تشغل المناطق الغربية والجنوبية وتحد منها الوهاد المفضية الى ((بانياس)) الساحلية ومرج ممرع اسمه وادى ((سروج)) ، وأما المدينة فهو جزء من البلد ولكنـه

لصق القلعة من الشمال وقد بناه أحد المنقذين ـ وهو أبو المتوج مقلد بن نصر ـ ومد قبالته جسرا عظيما على العاصي وسمى كل أولئك ((مدينة الجسر)) ونظرا لخطورة تلك المدينة فقد عنى بنو منقذ باقامة التحصينات المنيعة ازاءها ، وضربوا الأسوار العالية حولها .

وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها ما يفتح نحو الجسر ، وأكثرها استعمالا الباب الذى يطل على البلد من الجهة الغربية حيث كان المنقذون يخرجون منه الى الأهالى ويدخل هؤلاء عليهم ، متبادلين المنافع والرأى ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائمة الى اليوم ويطلق عليها « سيجر » وتشهد أحجارها الكبيرة وجدرانها السميكة على أن وقوفها فى وجه الغازين لم يكن معجزة ، وما كان يستطيع أحد أن يتسلق هذه الجدران وهى تذهب صعدا الى السماء فى شكل هرمى مبتور الرأس .

والواقع أن تاريخ شيزر ـ اقليما وقلعة ـ قد يكون من وجهة النظر العامة تاريخا لسوريا كلها ، غير أننا لا نلبث أن نشعر بأنه كثيرا ما ينفرد بأشياء . فالاسكندر المقدونى يترك شيزر حتى يبنى أفامية بينها وبين كفر طاب فى الشمال ثم يتحول اليها ، وسلوقس نيكاتور يخصها بعناية ويسميها « لارسا » بعد أن ينقل اليها قوما من لارسا التى فى ((تساليا)) . والصليبيون يعجزون أمامها ـ وقد تمكن فيها حكام عرب خالصون ـ مع أنهم قهروا بلادا تكبرها قوة وعدد نفس ، وعندما يحاصرها امبراطور بيزنطة ويقذفها بالمجانق يتدخل عماد الدين زنكى أتابك الموصل لانقاذها.

فليس عجيبا أن تظل شيزر العربية محتفظة باستقلالها ـ من حيث هى امارة عربية ـ وسط امارات سلجوقية كانت رياح الأحداث تطيح بحكامها واحدا اثر واحد ، ولم يضع هذا الاستقلال الا عقب زلزال سنة ٥٥٢ / ١١٥٧ لأنه قضى على آل منقذ قضاء مبرما !

وكثيرون هؤلاء الأمراء الذين حكموا شيزر ، أولهم فى رأيى سديد الملك ـ السياسى الداهية والشاعر الذى قصده الشعراء المشهورون كالخفاجى الدمشقى ـ لأنه خلص شيزر من نفوذ بيزنطة سنة ١٠٨١/٤٧٤ وكان سلفه قد ظفر بها من المرداسيين . وأشهرهم مجد الدين أبو سلامة مرشد لأنه فضلا عن كونه أبا أسامة صاحب هذه السيرة ورث الامارة من أخيه عز الدولة أبى المرهف نصر سنة ١٠٩٨/٤٩١ وورثها فى حياته أخاه عز الدين أبا العساكر سلطانا مؤثرا عليهـا القنص والرماية نهارا وتلاوة القرآن ونسخه ليلا ، وأثر عنه أنه قال : « والله لأولينها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » .

ولا ندرى متى تنازل مرشد لأخيه سلطان ، فان صاحب هذه السيرة الذى ولد سنة ١٠٩٥/٤٨٨ ودون فى كتابه « الاعتبار » أبرز حوادث سنيه يرسم طفولته أو صباه وعمه سلطان أمير يحكم ، بينما كان أبوه موزعا بين متصيدى شيزر القبلى والغربى . وكانت الأحوال السياسية اذ ذاك تنذر بالخطر ، فقد قامت حرب عانية حول السلطنة السلجوقية ـ بعد وفاة ملكشاه ـ بين أخيه تتش وابنه باركيارق ، واذ ينهزم تتش يقتسم ولداه سوريا فيأخذ فخر الملوك رضوان حلب ويأخذ شمس الملوك دقاق دمشق وينقسم صغار الأمراء بينهما شيعا ، فتصبح سوريا بذلك مطمعا سهل التناول للغرب ، وكان مؤتمر كلير مونت الذى دعا الى عقده بابا روما أوربان الثانى اذ ذاك قد قرر ابتلاع الشرق المتنازع أهله ، ولم يكن يخيف أعضاء المؤتمر شىء ، حتى ولا بأس الفواطم فى مصر .

وكان من الطبيعى أن يرسم بنو منقذ لأنفسهم السياسة التى تمكنهم من الاحتفاظ بدولتهم الصغيرة ، وباصطناع الممالأة حينا والتخويف حينا آخر برزوا على صعيد الأحداث بوجهين متناقضين . فهم طورا مع السلاجقة وأمرائهم ضد الافرنج الذين

أسسوا أربع ممالك لاتينية فى الرها وأنطاكية وطرابلس وأورشليم ، وهم طورا آخر فى موقف حيادى مالم تكن هنـاك الى الحـرب حاجة .

كل هذا وأبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد يشب ويتعلم ويحـارب ويصارع السباع ـ فقد كان ثمة آجام وغابات بخاصة قرب أفامية وطبرية ـ ولا يضن عليه أبوه الفارس العملاق وعمه البطين الأريب بما يجعله يوما مناط أمل شيزر .

* * *

وأما متى شارك أسامة فى أحداث هذا العصر فلا أحد يدرى على وجه التحقيق ، برغم أنه هو نفسه يصرح فى مذكراته بأن قتالا نشب عام ١١١٠/٥٠٣ بين شيزر وأنطاكية ، وكان أول قتـــال حضره حيث رأى تانكرد الذى خلف عمـه بوهيموند بن روبرت جسكارد الصقلى سنة ١١٠١/٤٩٤ ودأب منذ ذلك التاريخ على الاحتـكاك بسـلطان . غير أن طبيعـة تربيته وقربه من مركز الأحداث واشتراك أبيه وعمه فى عمليات الشـد والجذب التى صاحبت زحف الصليبيين الى مدينة القدس حتى تركع لجودفرى ـ وهو أحد قادة اللوثرنجيين القادمين من الرين ـ عاما ولأخيـه بلدوين الأول من بعده ، كل أولئك مع ما يتطلبه موقفـا الأخوين رضوان ودقاق لا شك يهيىء لأسامة مجالا كبيرا للعمل .

والحقيقة أننا نراه يحكى فى الاعتبار عن وقائع يسبق تاريخها تلك الوقعة التى شهدها ، مثـال ذلك اغارة تانكرد سـنة ١١٠٩/٥٠٢ على بلده واستياقه دواب كثيرة بعد أن قتل وسبى ، وكان قد سبق فضم اليـه كفر طاب وأفامية بعد أن اغتـال الحشاشون ـ وهم اسماعيلية باطنية ـ صاحبها خلف بن ملاعب سنة ١١٠٥/٤٩٩ ، كما يحكى من ناحية أخرى عن سقمان بن أرتق أمير سروج الذى كان يناصر صـاحب حلب ، وعن شهاب الدين

محمود بن قراجا أمير حماة الذى كان يساند صاحب دمشق . وفى لباب الألباب ـ وهو أحد كتبه المشهورة ـ يحكى حكاية عن ابن المنيرة أستاذه فى واقعة استيلاء الحشاشية الاسماعيليين على حصن شيزر ، وكان ذلك سنة ١١٠٩/٥٠٢ لاكما زعم هو فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، والمعروف أن أستاذه المذكور مات سنة ٥٠٣ وأن الحشاشية لم تستول على الحصن فى سنة ٥٢٧ .

وفى حياته اليومية نرى تفاعلا لا يجنح به الى السكينة والدعة قط ، وكان البيت الذى يسكنه مع أبيه ـ وهو جناح يطل على المدينة من القلعة ـ يربطه بالخارج ويقربه من السابلة ، فكان طلعة أشربت نفسه بتقصى الأخبار حتى وهى تكون قيلا وقالا ، واعتاد أن يجد فى البحث وراء ما يرضى فضوله ، فارتبطت حياته بحياة الاقليم كله . بل ربما صنع بعض هذه الحياة وهو بعد غلام ، وكان أبواه يتركانه الى طبيعته فيزهق روحا ويحيى روحا بقدر ما تسمح به طاقته .

وكم كان أوفق بشيزر العربيـــة السلجوقية التى اتصلت بالصليبية أن يظهر فتاها أسامة مزيجا من كل ذلك فيلفت اليه الأنظار منذ شب عن طوقه ، ثم يغدو على الأيام مثلا أعلى للداوية والاسبتارية فرسان الافرنج المعروفين . لكن ذلك لم يكن بمانعه من أن يضرب على يد الصليبيين بعنف ما وجد الأمر يقتضى ذلك ، لأنه جندى من جنود المسلمين قبل كل شىء ، كما واجه السلجوقية عندما أحس أنها تريد حرمان بلده من استقلالها .

انه لم يكن مخادعا ولا مخاتلا ، ولكنه كان سياسيا اضطرته ظروف العصر والبيئة الى أن يصنع ذلك الأسلوب المرن !

وفيما يرويه عن نفسه نحس أنه كان مقداما رابط الجاش ، قادرا على أن يواجه كل موقف دون أن يريق ماء وجهه . ويوم رأى أنه لابد من ترك بلده ليعيش أبيا تركها ، وفى دمشق أو فى

القاهرة رسم وخطط وربما دبر وتآمر ، الا أنه لم يفقد خصلته الأولى وهى الاباء . وحتى وهو يحب وينزف الدموع رفض أن يسلم قياده لصاحبته ، والفارس على أى حال قد يبكى كما يبكى الرجال .

ولكنه قبل ذلك كله أو الى جانب ذلك كله كان كاتبا شاعرا ، ويتضمن تراثه الباقى لنا من نحو ثمانية عشر كتابا .. ستة كتب وديوان شعر ومذكراته التى أشرنا اليها ، وكانت قد ظلت مجهولة لدينا حتى طبعها سنة ١٨٨٦ لأول مرة المستشرق الفرنسى هارتويج ديرنبورج عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة الاسكوريال وعليها اجازة من مرهف بن أسامة .

واذ يستوى بيان أسامة فى نثره وشعره ـ وقد طبعت عدة كتب له ـ ويتعثر فى المذكرات فاننا نرجح أن ناسخ المخطوطة لم يكن على خبرة بالأسلوب الأدبى ، على الرغم من أنه كان ينقل أو يملى عليه من نسخة كتبت بعد وفاة أسامة بست وعشرين سنة ، فكثرت الأخطاء الى حد أعجز ديرنبورج ، ولكن فيليب حتى قوم النص تقويما جيدا ونشره لأول مرة سنة ١٩٣٠ فى برنستون .

والأمر على أى حال ينبغى ألا يصرفنا الى أثر الرجل ، فقد كان من غير شك عظيما ، ، الا أن عظمته لا تكمن فى بيانه وتدفقه بقدر ما تكمن بنيانه وتحركه . وكان ما يصعب على الشعراء والقاصين أن يتصوروه يأتيه طوعا لأنه نابع من أعماقه ، ويفيض بلا تكلف ولا زخرفة ، حتى اننا لنعجب كيف لم يكن يجد مشقة فى استهوائنا والتأثير علينا .

فهل ما يدهش أن ينال هذا البطل القناص والسياسى الأديب كل ما ظفر به من شهرة ؟ اننا قد نفضل عليه المتنبى أو المعرى ، لكن هل كان أحد الاثنين يجرؤ على أن يعيش مثله حياته كما يريد ؟

ومن فى تاريخنا الطويل المجيد استطاع كما استطاع هو أن يظل مدى حياته مدعاة فخر ومعقد آمال ، حتى اذا مات رفض شانئوه قبل محبيه أن ينقصوا من قدره ؟

ان أسامة بن منقذ ظاهرة نادرة ، واليـــوم ونحن نخوض معركتنا ـ فى أرضنا العربية ـ فى حاجة الى فهم هذه الظاهرة ، والى تحديد معالمها ومعرفة الخطوات التى قطعتهـــا لنتأثرها . فالحال هو الحال ، والعـــــدو لا يختلف عن العدو ، والدسائس تحاك ويؤلب علينا فيها كما حيكت وألب بالأمس ، وليس تحت الشمس جديد .

ومن أجل ذلك وللغاية التى اســـتهدفها أسامة ونادى بها وحارب لها حتى نكب ، نكتب هذه الصفحات عنه ، راجين أن تكون وفاء بحق بطل تستطيع أعماله أن تخلق فينا ملايين الأبطال .

الباب الأول

في شيزر

(١)

الزحف الصليبى

يقول التاريخ ان جيوش أوربا التى اصطلح على تسـميتها بالحملة الصليبية الأولى أعلنت بعد تأسيس امارة أنطاكية سنة ٤٩١/ يناير سنة ١٠٩٩ أنها لا تبغى شرا بولايات الشام الاسلامية ما دام أمراؤها لا يعترضون طريق النصارى الى أورشليم (١) وصحب هـذا الاعلان خروج ريموند دى صنجيل ـ صاحب تولوز وأحد قادة الحملة بجنود السيد الرب زحفا على طول نهر العاصى ، وقد منى بخيبة كبيرة بعد أن نصب بوهيموند نفسه أميرا على أنطاكية دونه .

غير أنه لم يكد يقترب من معرة النعمان حتى أضرم فيها النار ، فأعلن الولاء له سيف الدولة خلف بن ملاعب صاحب كفر طاب وأفامية ذات القلعة المنيعة التى تعرف بقلعة المضيق (٢) .

---

(١) W. D. Stevenson : The Crusaders in the East, p, 218, Cambridge 1905.

وابن الأثير فى الكامل ٨ : ١٨٧ ، ٢٠٤ ط . التجـارية بمصر ، وتاريخ أبى الفداء ٢ : ٢١٠ ط . الحسينية بمصر ، والمعروف أنه قبل ذلك بعام أنشئت فى « الرها » داخل مناطق الأرمن أول امارة لاتينية وقد حكمها بلدوين دى بويون الأول الذى نصب فيما بعد ملكا على القدس .

(٢) ستتردد الأسماء : معرة النعمان ، وكفر طاب ، وأفامية كثيرا . فأما معرة النعمان فهى بلدة أبى العلاء المعروفة ، وتقع الى الجنوب الغربى من حلب . وأما كفر طاب فبلدة أخرى فى برية معطشة بين المعرة وحلب ، وكان بها حصن =

ولم يجد أبو العساكر سلطان ـ الذى خلف أخاه مرشدا منذ أشهر قليلة ـ بدا من أن يبعث برسله اليه بالهدايا ويبدى استعداد شيزر لأن تسهل مرور قواته « المسالمة » الى الجنوب ، وفى الوقت نفسه أرسل أحد اخواته الى فخر الملوك رضوان فى حلب يستمده اذا ركب ريموند رأسه ، ويرجوه أن يمنع عنه بنى كلاب الذين يخرجون من عنده لضرب شيزر .

كانت الأحوال عصيبة ، ولكن بنى منقذ كانوا قد عولوا على الخروج من الأزمة بأى ثمن . ودرءا للخطر أغلقوا باب الجسر وفتحوا الباب الغربى الى الأهلين يستنهضون هممهم ؛ ووزعوا عيونهم فى الأرباض ، بينما أخذ الفرسان يضربون هنا وهنالك فى دوريات متصلة . ولم يبق أحد فى قاعة المرقب العالية سوى سلطان نفسه ، وقد أخذ ابن أخيه أسامة بين يديه يداعبه :

ـ لقد اصطدت اليوم دراجا كبيرا .

ـ وحدك يا أسامة ؟

ـ كان معى أبى ، ولكنه تركنى على الماء وركض مع الزغارية .

ـ ما خفت ؟

ـ كان معى هذا الخنجر !

واستضحك سلطان ثم قبله ، فان هذا الطفل الذى يصيد الدراج ويتركه أبوه وحده ومعه الخنجر لم يكن قد وصل الى الخامسة من عمره . وهى سن صغيرة عادة ، الا أنها كانت لدى

= أسفونا الذى ملكه سديد الملك ، وزرعت يوما القطن ، واما أفامية ـ وأصله أباميا اسم أميرة فارسية ـ فالى الشمال من شيزر وجنوبى كفر طاب ، وكانت احدى أهم مدن قام عليها ملك السلوقيين فى سوريا السعيدة ـ سيريا سالوتاريس ـ وكانت تضم الرستن وحماة ومريمين ورفنية وبحيرة الغاب ، وعرفت بآجامها التى كثرت فيها السباع .

أسامة كافية لتجعله يتفتح على دنياه التى لعلها بدأت بمعركة من المعارك التى يخوضها السلاجقة ، ولعله لا ينسى قط جزع أبيه وأعمامه الذين كانوا مجتمعين فى القلعة بياغى‌سيان أمير أنطاكية ورضوان لتدبير هجوم على جناح الدولة صاحب حمص عندما بلغهم نبأ سقوط الرها فى يد بلدوين دى بويون الأول سنة ١٠٩٨ فانفض الاجتماع وسقط عمـــه عز الدولة أبو المرهف ميتا . وأما كارثة أنطاكية فقد سمع بها وهو مع جدته ، ورآها تنتفض عندما بلغها نبأ مصرع ياغى سيان فى المعركة ثم تهتف :

ـ أين مرشد .. ألا يزال يطـــرد اليحامير فى أرض حصن الجسر ؟

فيقول لها غلامه محمد العجمى :

ـ بل يستعد فى دار الحرب يا مولاتى الخاتون !

ولو أنا ألقينا نظرة على حياته اليومية فى هذه المرحلة ، لوجدنا فيه الحركة الدائبة والعزيمة التى لا يجد الوهن اليها سبيلا .. هو لا يأكل كما يأكل أترابه من أقاربه ـ وهم يملئون بيوت القلعة ـ وانما يخطف الطعام خطفا ، ويهرب من مواليه ليختفى عن أعينهم اختفــاء تاما .. وفى أكثر الأحيــان يحضر اجتماعات الأسرة ، ويستمع الى المتحدثين وينفعل اذا انفعلوا ، وقد يصاحب أباه الى المتصيد الغربى فى البلد حيث يلازمه ويأخذ عنه أســلوبه فى معاملة كلابه السلوقية والزغارية وارسالها وراء الغزلان والأرانب .

وما كان يروع الخدم والموالى الا أن يروه يقفز على الأبواب ويتسلق الأسوار ويتضاحك فى عنف ، ولم يكونوا يتصورون مناط الفكرة التى تطوف بخاطره ، ولكنهم كانوا يجمعون على أنه أخطر أبناء القلعة من الأمراء .. فاذا جن الليل ، رفض أن ينقلب الى فراشه قبل أن يرى عمــه فى داره ، ثم يلتمس أباه فيقف أمامه

يتأمله وهو يكتب فى كتاب الله آيات على الطاق الصورى ، ويقول لأمه الخاتون بعد ذلك :

— ما ينتهى أبى من الكتابة ؟

تلك الحياة لم تكن تتغير ، غير أنها فى هـــذا اليوم من يناير سنة ١٠٩٩ خرجت نهائيا عن الطريق المرسوم .. فأما المزارعون فقد احتموا بدورهم وخصاصهم وقد أعدوا النشاب والقنطاريات — نوع من الرماح القصـــيرة — ورجع المولعون بالصيد من حيث أتوا وهم يقولون ان جنود الأفرنج يصلون شيزر بعد ساعة على أكثر تقدير وبدأت المقاتلة تأخذ أماكنها على الأسوار وخلف الكوى .

وغير بعيد من جسر أبى المتوج وفوق حجر ضخم من حجارة السور الذى يرتفع فوقه الحصن من قلعة شيزر جلس فى شمس الظهيرة كل من ابن الأحمر الكنـــانى ونمير العلاروزى مستسلمين للدفء ، وقـــد وضعا جانبا رمحيهما وسرحا جواديهما غير بعيد منهما فى السهل المعشب ، ولقد ظلا ساكنين برهة فلما تكلم أحدهما نشط الآخر له .

وكان من الطبيعى أن يعرضـــا كلاهمـــــا للأزمة التى تجتاح البلاد ، ولكن شيئا آخر شغلهما بعض الوقت ، وذلك أن ابن الأحمر الكنانى كان لا يزال واقعا فى أسر حادثة وقعت له فى ظاهر كفر نبوذا . فقد هاجه أسد وهو على فرســـه ، فوقع بين براثنه وبرك عليه لاقما وجهه وجبهته .. ولما كان الأسد ممتلئا فقد اكتفى بلعق دمائه ، حتى تمكن من الافلات منه الى شجرة تسلقها ليجد نفسه فريسة سهلة للذر الذى تجمع على جروحه . ومع ذلك فقد كتبت له السلامة بعد انفلات الأسد على صوت قافلة تعبر الطريق ، ولو كان بقى لسلم ابن الأحمر نفسه طائعا (١) .

(١) وردت هذه الرواية فى « الاعتبار » وثمة ما هو اعجب ، فاذا بدا للقارىء فيه ما لا يقبله منطقه فالأمر فى ذلك للمؤلف ، فانى لا أتحـــرى الا ما يقول ، ولن أغزو الا مغزاه على طول صفحات هذا المؤلف .

واذ يعلن الاثنان اتفاقهما على أن النجاة كانت لطفا من الله فقد تمنيا أن يشمل هذا اللطف شيزر فى محنتها ــ وكم مرت بها المحن ــ فتسلم لأهلها ويسلم أهلها ، ويتمكن أميرها أبو العساكر سلطان الذى ولد سنة أربع وستين وأربعمائة من أن يتفرغ لنهاية بنى كلاب وفدائيى الباطنية الحشاشين .

وما كان لهما أن يتطلعا الى أبعد من ذلك ، فهما لم يكونا الا من فرسان القلعة ومثلهما كثير ، غير أن البحث عن الحليف ــ فى مثل هذه الظروف ــ من البديهيات التى لا يختلف عليها اثنان ، ولهذا اجمعا على أن حماة التى كانت شيزر تابعة لها حتى نهاية حكم المرداسيين ــ أى قبل تفرد بنى منقذ بالحكم فى كورتهم ــ هى النصير الطبيعى ، بشرط أن يلقى عرض الحائط بالسعايات التى يتجرد لها سقمان بن أرتق أمير سروج التركمانى .. وعلى سلطان مهما يكن الأمر أن يخطو تلك الخطوة ، لأنها فرصة اذا ضيعها ترفعا عن الحيلة ومكتفيا بنفسه فليس شك فى أن مقاتله ستكون بادية لمن يسدد اليه سهمه .

ثم أخلدا للصمت وكل منهما يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن عدوهما القادم من بعيد ليس من قبيل هؤلاء الذين اعتادوا أن يحارباهم ، والدليل على ذلك استيلاؤه السريع على أكثر بلاد الأرض ومدن السلاجقة فى آسـيا الصغرى ، فكيف تكون المعركة القادمة ؟

لا أحد يدرى ، ولكن أقبل عليهما فى تلك اللحظة فارس آخر من المحاربة يدعى جمعة النميرى وصرخ :

ــ اجتاز الآن عسكر الافرنج نبوذا !

وأسرع ثلاثتهم الى الباب الغربى ، وكانت قاعة المرقب اذ ذاك قد احتشدت بالأمراء ورؤساء العسكر ، بينما جلس كاتب الديوان ــ وهو يهودى يشتغل بالحجامة اسمه اسحاق ــ على استعداد

بأوراقه وقفص الزاجل .. ولا يظن أحد أن أسـامة كان جاهلا ما يجرى ، والا لما اقتحم على المجتمعين مجلسهم ليقول فى حدة :

ــ اتركوهم يأتوا لنقتلهم .

ثم خرج الى أترابه وكان فيهم محمود بن جمعة النميرى الذي يؤثره باهتمامه وهمس له :

ــ تعال الى سطح المرقب وهات النشاب معك !

وقبل أن يهيأ للصغيرين أن يستويا على أعلى مكان فى القلعة كان جنود « السيد الرب » قـــد حلوا فى شيزر وفيهم الراكب والراجل وبعضهم مسيف وبعضهم رامح ، وكانت أصواتهم التى ترتل تدوى فى الأرجاء ويردد لها الصدى هديرا لا ينقطع .

استعد حراس الجسر تماما ، ومن فوق رءوسهم برزت السهام من كوى الحصن ، بينما أخذت المقاتلة المسيفة أماكنها فى القلعة وفى المدينة نفسها حيث كان الفرسان لا يكفون عن الحركة قط .. ولكن الافرنج وقفوا على المشارف ، ولم يبد منهم ما يدل على أنهم يريدون قتالا ، وكان أن خرج سلطان بنفســـه اليهم على ظهر جواد كريم ، ثم عاد ...

وانتهى اليوم على هذا النحو وأوى أسامة الى فراشه وهو يحلم بالمعركة التى أكد وقوعها فى صباح الغد لصـديقه محمود ، فلما أشرقت الشمس روع الشيزريون بفساطيط الافرنج منصوبة قبالة الجسر على الضفة الشرقية من العاصى ، وكل الدلائل تشير الى اقامة طويلة . وهنا كان لابد أن يتخذ بنو منقذ قرارهم الأخير بخاصة بعد أن بعث ريموند اليهم يطلب مئونة ، فردوا الرســول ردا كريما ، وان حملوه استياءهم لقائدهم . ثم أنفذ سلطان اليهم فارســـين يبديان استعدادهما ليكونا دليلين الى حيث يجدون الغنيمة الطيبة فى سروج ، وبعد أخذ ورد استمر أربعـــة أيام

ـ مات خلالهما أمل الصغير فى الحرب مرات وبعثت مرات ـ رحل الافرنج فى اليوم الخامس حيث سلبوا سقمان بن ارتق أغلى ماكان فى سروج من جياد وغنم وغلال وذهب .

وبقدر ما هنأ سلطان نفســـه لنجاحه فى أن يملى ارادته على الافرنج فلم يعبروا جسر أبى المتوج ، وبقدر ما سعد بذلك الشيزريون ومن هرب اليهم من أسر معرة النعمان التى احترقت ، فان أسامة ظل وحده المغيظ الناقم .. وقد سمعته أمه يلعن الجبناء ، فلم تسأله من يقصد ، وان كانت تحس أنه يقصد الجميع .

(٢)

ممارسة الحياة

الأيام تمر بالصغير ، فيسمع من أنباء القتـــال ما يزعجه ، ويجد من مؤدبه عبد الله محمـــد بن يوسف ـ وكان يعرف بابن المنيرة ـ ما ينوء به ويسوء .. واذا كان بطبيعته متوقد الذكاء فان ابن المنيرة يدهش لماذا لا يعلق بذهنه كل ما يلقنـــه اياه من آيات القرآن ومقتطفات الشعر ، وكان اعتصامه بالصمت أحيانا يحمله على الظن أن بنفسه جفوة ، فى حين يرى أبوه منـــــه وهو يمارس معه هوايته فى القنص والركض كل ما يبشر بطلعة . على أن عمه لم يقتصد فى تأنيبه ، اذ كان يداعب الأمل أن يتخـــرج فى العلم أساسا ، وتكون الفروسية التى شهر بها بنو منقذ مما لا يغلب عليه كأبيه .

لكن كان من الطبيعى جدا أن يستثار الابن بأعمـــال الأب ، وكانت تبدو اذ ذاك خارقة .. فهو مع ثقل جسمه يركض نهاره كله ، ويطارد الوحوش دون أن يكل وخـــرج فى سنة ١١٠٤ الى كفر طاب لمعاونة صاحب أفامية خلف بن ملاعب وكاد يهلك عندما قطع أحد شرايينه ونزف ، وفى سنة ١١٠٨ يحمل عبء الحرب التى شنها على شيزر تانكرد الصقلى ، وكان قـــد ورث عمـــــه بوهيمند الأول على أنطاكية من سنة ١١٠١ وهكذا ...

وكان الأب نفسه يعطيه فرصته ، فقبل أن يصل الى العاشرة رأى يوما حية عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القناطر

التى فى داره ، فلم يتردد قط وصعد اليها بسلم أتى به دون أن يعترض أبوه أو ينهاه .. وبسكين صغير أخرجه من وسطه ـ وبينه وبين الحية دون الذراع ـ حز عنقها وهى تنعقد على يده حتى قطع رأسها وألقاها الى الأرض وهبط .

وحول هذه السن نفسها كان واقفا على باب الدار فى القلعة ، واذا محمد العجمى غلام أبيه يلطم خادما له فيلوذ به ويتعلق بثوبه. ولكن الغلام يتحرش به ، فيلطمه هو بقضيب كان فى يده ، واذ ذاك يهاجمه الغلام فلا يجد بدا من أن يخرج سكينه ويدكه فى صدره حتى اذا راح يتنفس طلع منه الدم مثل فقاعات الماء ، ثم قضى فى آخر النهار !

هكذا بدا الابن وأبوه ، لكن العم لا يرضيه ذلك ، ويسعى من أجل أن يكرس أسامة نفسه للفقه والدين ويخصص له أبا الحسن على بن سالم السنبسى ليعلمه الحديث ، فيتعاونان على تعذيبه ، ويقسرانه بين الحين والحين على أن يبدأ مراجعة ما لقن ابتداء من بدء الخليقة . ولابد بطبيعة الحال من الوقوف عند كنانة ومن برز من رجالاتها وزعمائها ـ وهنا يعنى ابن المنيرة بالأدباء ويركز السنبسى على العلماء ـ الا أنهما لم يكونا يجدان ضرورة الى أن يتحدث عن أبيه مرشد ولا جده مقلد بن نصر بن منقذ ، لأن تاريخهما قريب ومآثرهما محفوظة .

وفى عام ١١٠٩ تكون ثالثة الأثافى ، اذ يحدث أن يدمر الفرنج دار العلم فى طرابلس ويطرد متوليها أبو عبد الله الطليطلى ـ سيبويه عصره فى النحو ـ فيدعوه سلطان الى القلعة ، ويجلس اليه أسامة ثم يشاء الله أن يتكرر جلوسه عشر سنوات كاملة .

الا أنه كان فى هذه المرحلة ـ وقد بلغ الرابعة عشرة ـ قليل الشكوى ، فقد كبر وأدرك أنه بغير العلم لا تكون حياة . وأقبل

على حفظ الشعر (١) ـ ديوان العرب ـ وفنون اللغة ومسائل النحو ومشكلات الفقه بما اعتده أساتذته مدعاة للفخر ومعقدا للأمل . فلا عجب اذا هم نزلوا على ارادته ـ وان فاضت بالأسى صدورهم ـ فتركوه أحيانا الى القنص الذى أصبح نزهته ، على أن يعود اليهم متجدد النشاط .

وقد كانت أمه من ناحية أخرى تمده بنصحها ، ويوم أصر على أن يصحب حسنونا الكردى ـ وهو من فرسان شيزر ـ الى أنطاكية بعد وقعة سنة ١١٠٨ وقيام الصلح بين سلطان ، وتانكرد ، سألته :

ـ أتدرى لماذا نبعث بحسنون الى دنكرى ؟

فأجاب :

ـ ينفذ اليه الفرس الذى طلبه منا .

قالت :

ـ ومن يكون حسنون يا ولدى ؟

فقال :

ـ مولى لنا ..

وهنا قالت بحزم :

ـ اذن فقد اخترنا مولى لعمل الموالى فأيش أنت ؟

وفى سنة ١١١٠/٥٠٢ عاد تانكرد الى شيزر ـ بعد أن نجح

---

(١) نقل الحافظ الذهبى فى (تاريخ الاسلام) عن أبى سعد السمعانى قال « قال لى أبو المظفر ـ يعنى أسامة ـ أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية » .

الاسماعيلية (١) فى اقتحام حصن المدينة ـ محـــاولا الاستيلاء عليها ، وكان أبوه وعمه قد خرجا الى الصـيد بالبزاه نحو تل ملح ـ وهناك طير ماء كثير ـ فما شعرا الا والأمير الصقلى يغير على البلد فى الوقت الذى كان يزحف فيه أمير طرابلس الى الســـور الغربى . وقد تولى سلطان مواجهـــة الطرابلسيين بعســـاكره فكسرهم ، فى حين سار مرشد ـ وكان معه أسامة ـ الى البلد حتى اذا باتا قريبين من الفرنج قال الأب :

ـ امض أنت فادخل !

واتجه على رغم علة كان يشكو منها الى أعدائه ، وأما هو فان أمه عندما رأته قالت له :

ـ ما كان ينبغى أن تترك أباك وهو مريض !

فعاد اليه فاذا خيل شيزر قد لقيت أوائل المقاتلة الأنطاكيين ، وكان قد خرج من شيزر رجالة كثيرون ، فحمل عليهم الفرنج دون أن يزعزعوهم حتى قال تانكرد لمحاربيه :

ـ أنتم فرسانى وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة

---

(١) مما يجب ان يذكر أنه فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يدخلون سوريا من الشـــمال الغربى كان الحشاشية يدخلونها من جهة الشـــمال الشرقى ، لكن أول معقل اتخذوه لهم كان مدينة بانياس سنة ٥٣٥/١١٤٠ ، وساندهم رضوان السلجوقى قبل أن يموت سنة ١١١٣ ، وراحوا يستولون على المناطق الجبلية فى شمالى سوريا وجعلوا « قدموس » عاصمة لهم وفيها يحكم شيخ الجبل من قلعة مصياف ، ويشدد النكير على شيزر طمعا فيها ـ يراجع تاريخ ابى الفداء ٣ : ٦٠ ، ٦١ والكتاب الذى ترجمـــه أبرى ستيوارت بعنوان : Burchard of Mount Zion صفحة ١٠٥ ط . لندن سنة ١٨٩٦ .

مسلم وهؤلاء سرجند (١) ما تقدرون أن تقلعوهم من موضعهم .

قالوا :

ــ نخاف على خيولنا والا دسناهم وطعناهم .

قال :

ــ الخيل لى .. من قتل حصانه أخلفته عليه .

وعلى الرغم من أن سبعين حصانا قتل فى هذه المعركة فقد وجد بنو منقذ أن لا مفر من انهاء المعركة ، ورضى تانكرد ــ فى سبيل سلم مؤقت ــ أن يتقاضى جزية عشرة آلاف دينار تحمل اليه كل سنة . وقد كان جائزا أن تتغير النتيجة ، الا أن ما دفع بنى منقذ الى قبول هذا الوضع هو تغلغل فرسان الصليبيين فى البلد حيث عاثوا فسادا .. ورفض أسامة أن يقبل ما قبله عمه وأبوه فألح لأمه تلميحات تشف عن الحنق ، وعندما أخبرها أن حسنونا الكردى أسر فى المعركة وأن تانكرد يريد فيه بعد أن فقأ عينه اليمنى ألف دينار وفرس أبيه قالت :

ــ من حق القوى أن يملى شروطه !

وانقلب الى مؤدبه كسيرا ، فرفض هذا أن يتجاوب مع أحزانه وأخذ يحدثه عن صعاليك هذيل ، فقاطعه قائلا :

ــ ألم يكن فى هؤلاء فرسان ؟

---

(١) سرجند : رجالة ، وهى من الكلمات الأفرنجية التى شاع استعمالها فى العربية طوال عصر أسامة ومثلها البسكند أى Viscount والبرجاسى أى Bourkeoisie ولم يكن أسامة يتورع عن استعمالها فى كتاباته ، كما يلاحظ أن استخدام العبارات الدارجة ومنها « أيش » التى مرت بنا بمعنى « أى شىء »

أجاب :

ــ بلى ..

قـــال :

ــ فلم لا يعن لك الا الفقر والنهب والفرار فى الجبل ؟

وصمت قليلا كأنه يفكر ، ثم استطرد :

ــ يا أستاذ .. والله لو ركبت أنت حصانا ولبست زردا وخوذة وتقلدت سيفا وحملت رمحا ووقفت عند مشهد العاصى ما كان يجوزك أحد من الافرنج .

قال الشيخ :

ــ بلى والله كلهم !

فقال أســـامة :

ــ كانوا يهابونك ولا يعرفونك ..

قال الشيخ :

ــ سبحان الله ، فأنا ما أعرف نفسى ، لكن ما يقاتل عاقل ..

فتساءل أسامة :

ــ تحكم على عمى وأبى وحسنون وكامل المشطوب وبدى القشيرى ورافع بن سوتكين والرئيس جواد والقائد أسد وحمدات الصديق وهم فرسان الحرب أنهم مجانين ؟

فأجاب الشيخ قائلا :

ــ لم أقصد هذا ..

فســــأله :

ـ اذن ماذا قصدت ؟

فقال :

ـ انما قصدى أن العقل لا يحضر وقت القتال ، ولو حضر ما كان الانسان يلقى بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام .. ما هذا شيء يقضي به العقل !

وفى غضون ذلك أو قبل أن يكمل العام دورته كان صوت السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه قد وصل اليه يحرض جميع الأمراء على « المحاماة عن بيضة الاسلام والمسلمين » فاستمد من خزلان أهله عزما ، ولما كان قد عالج الشعر فقد انطلق يقول :

ألم تخبر بما نحمى القــــوافى   بأنا لا نخــــاف ولا نلين

ســـنجعل جزية المغلوب دينا   وشر الدين ما تجـرى المنون

واذ يتابع على الأيام ما نجم عن تلك الدعوة يفعم قلبه بالأمل ، فقد لباها الأمير اسباسلار شرف الدين مودود بن ألتــونتكين صاحب الموصل والأمير سقمان بن أرتق صاحب ميافارقين والأمير نجم الدين ايلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وتوجهوا الى الرها فجمع جوسلين صاحبها من الفرنج كلا من بلدوين الأول ملك أورشليم وتانكرد صاحب أنطاكية فى جيش لمواجهة تحدى ملكشاه .

ولقد كان الحلف الاسلامى موفقا فى فتحه الباب لمن يريد أن يجاهد ، وبعث رؤساؤه الى ظهير الدين طفتكين ـ أتابك دمشق الجديد ـ فى الوقت الذى أخذ فيه تانكرد يبنى شرقى شيزر أو فى مواجهة قلعتهــا حصنا يسهل له الاســـتيلاء عليها . وهنا ترك المتحالفون الرها وعبروا فى المحرم من سنة ٥٠٥/١١١١ نهر

الفرات وضربوا خيامهم قرب المعرة فى حين اجتمع الفرنج فىأفامية ، ولم يكد ظهير الدين طفتكين يصل الى حمص حتى دب الخلاف بين المتحالفين الأكراد فتراجع أغلبهم بينما التقى مودود وطغتكين مع سلطان .

وعلى الرغم من خطورة المعركة وضراوتهـا ـ وقد كان عدد الرجالة الشـيزريين وحدهم خمسة آلاف ـ وعلى الرغم من أن أسامة كان اذ ذاك فى السادسة عشرة فقد وقف الى جانب عمه يذود عن مؤخرة المتقدمين الذين كان يقودهم مودود . ودان النصر لشيزر ورحل الفرنج وقد كادوا يتمزقون بددا ، فى حين انقلب أسامة الى القلعة والدنيا تضيق بسعادته .

وهكذا بدأ نجم مؤيد الدولة أسامة ـ الذى كنى أبا المظفر ـ فى الصـعود ، وبدا وهو يـكتمل أسباب النمو والنضج أحـد المجدودين .. فان كل شيء قد تهيأ له ودان ، وصار بين أبيه وعمه مايشبه التواطؤ على أن يكون أمير شيزر فى المستقبل بخاصة أن صاحب العرش حتى تلك المرحلة من حياته لم يعقب ذكرا يرثه.

وما كان أحد ممن اختلطوا به فى شبيبته تلك الأولى يحتـاج الى ما يدله على أنه كان يمثل التفوق البدنى .. فهو جسيم كأبيه مفتول السـاعدين عريض المنكبين ، وكان وجهه الذى طر فيه شاربه على شفتين مطبقتين ثابتتين ذا جبهة عالية يتوجها شعر حالك ، واذا انتصب فهو الارادة المجسـمة أو ركب جواده أتى بالعجب العجاب ، وقد يضع سفرجلة أو برتقالة على الأرض ويقف بعيدا عنها أربعين خطوة فيصيبها بالنشاب .

ولقد كان فى أثناء المعارك يبث الشـجاعة فى قلوب الجند المقاتلين ، وذلك عند ما يكسر على أعدائه بجرأة الليث واقدامه ، وأنه ليكفيه زرد عادى ـ غير ثقيل ـ ليقتحم بقنطاريته وهو على الفرس حياض الهلاك فيجعل من الهزيمة نصرا مؤزرا .

وكان قليل الكلام ، لكنه اذا تحدث فبذلك الصوت الملىء بالثقة مع أن ستة عشر عاما أو سبعة عشر لم تكن بالسن التى تمثل تمام النضج . وقد انقلبت موازين الحكم عليه أو تغيرت ، فأما معلموه فقد أجمعوا على أن طاقته على التحصيل نمت فجأة ، وأما عمه فقد ارتضى ذلك بعد أن كان يسوؤه منه انصرافه عن المدارسة والمذاكرة (١) ، وأما أبوه فكان يؤكد لنفسه أنه حيال انسان لابد أن يعود غيره على ألف طاعته وقبول أمره .

وربما لأنه مجدود — مع ذكاء بين — وصل بسرعة الى أن يتعمق القوانين الأخلاقية التى سادت عصره . وعلى الرغم من وجود قيم ذاتية عنده قد تشغله أحيانا عن العلاقات الموضوعية ، فقد ظل على اعتقاد بأن الفرد للمجموع بلا أدنى معارضة ، وأن الأثرة التى وجهت فى الصميم ضربات مسددة الى حلف سنة ١١١٠ يمكن أن تهدم كل حياة يراد منها أن تكون كاملة . ومن أجل ذلك لابد أن يعرف الناس ويتصل بهم ويفهمهم ، ويقرا تاريخهم ويعرف أساطيرهم ، ويحفظ أشعارهم ويلم بأخبارهم ، على أن يكون لهم بادىء بدء شىء يجمعهم وأجمل ما يكون هذا الشىء اذا قصد به صالح الأقوام .

---

(١) بلغ من حب سلطان لابن أخيه مؤيد الدولة أن ذكره فى شعره برائية رائعة مطلعها :

أين مضاء الصارم الباتر	من لحظات الفاتن الفاتر

وفيها يقول :

وقهوة تحسب كاساتها	كواكبا فى فلك دائرى
رعت بها ليل النوى فانجلى	عن شمس هذا الزمن الناضر
وأبعد الأخطار تقريبها	مؤيد الدولة من خاطرى

(٣)

فى مهب الريح

كان العام التالى من الأعوام الحاسمة فى حيـــاة أسامة ، فقد أرسل تانكرد الى بنى منقذ فارسا صليبيا بغلمان له ومعه رسالة موجزة يقول فيها « هذا فارس محترم منا كان يحج ، ويريد اليوم أن يعود الى بلاده ، لكنه يطلب أن يقضى بينكم بعض الوقت ، فاستوصوا به » .

وبدأ الفارس حدثا طويلا حسن الصورة ، غير أن وجهه كان مليئا بالندوب وقد شج رأســـه من عند المفرق تماما فهو يضع الخوذة فوق الشجة . وتحبب الى أسامة فتقرب هـــذا منه ، وفى الساحة ضاربه بالسيف فلم ينل منه شيئا ، وتراميا بالنشاب فتفوق عليه ، وداعب برمحه رافع بن سوتكين فظهر عليه بينما أثار الضحك على عتاب العملاق . وأما المصارعة فقد تفوق فيها أسامة ، وألقاه على ظهره ثم عاد يرفعه والفرنجى يحاول عبثا أن يفلت منه ، فلما قال له :

ــ لا شك أنك مصارع قدير ..

عقب أسامة بقوله :

ــ علمنى أبى وهذا العتاب ..

ولم يستشعر زهوا كبيرا ، لأن القوة العضلية لا تعنى شيئا اذا ووجهت بالزرد الثقيل والسلاح الصقيل ، أو حتى اذا ووجهت

بخبرة المقاتل الذى يعرف كيف ينقض بسيفه فى اللحظة المناسبة . ان الشوط أمامه لا يزال طويلا ، وقد نبهه عمه منذ أيام الى ذلك عندما قال له :

ـ أتريد أن تكسب الحرب يا مؤيد الدولة ؟ اذن دعنى أقل لك لا تعتمد على القوة وحدها ، بل ربما كان تنظيم الجيش المدرب فى المعركة أول أسباب النصر ، ويوم تتعلم كيف تنظم جيشا فثق أنى سأكون أول المشتغلين تحت قيادتك .

على أن الفارس الصليبى قال له ورافع بن سوتكين يقوم بدور المترجم :

ـ ومع ذلك فانى أزعم أنك لو كنت مع اسباسلار فى المعركة الأخيرة لأغريتنى بمجالدتك ، واذن لما عشت حتى اليوم .

ثم سرد عليه كيف كان فى المؤخرة مع تانكرد ، وقد سقط عن جواده وضاع سيفه ولم يبقه حيا الا كراهية لمقاتليه ، فان الجندى عندما تحيق به الهزيمة ويريد أن يفر تشيد قدميه الى الأرض تلك الكراهية وحدها . وحقا أثارت أقوال الفارس طلعته ـ وهو الراغب فى أن يعرف الكثير ـ وأعطته صورة واضحة عن طبيعة المعركة الا أن شيئا واحدا فقط ظل يلح عليه ، وهو توجيه الدعوة اليه لزيارة أنطاكية باسم تانكرد . وقبل أن يظفر بموافقة أبيه وعمه قتل ذلك الأمير فى أحد أيام ديسمبر من سنة ١١١٢ ولم يسفر قتله ـ للعجب الشديد ـ عن تحسن فى الموقف ، فمن ناحية دبت الفرقة فى المعسكر الاسلامى بقتل مودود واسطة عقد الجهاد وهو فى ضيافة طغتكين ـ قتله أحد الحشاشية الباطنية الذين هم أعداء ألداء لبنى منقذ ـ ومن ناحية أخرى بدأ شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة فى شن الحملات على شيزر .

وهكذا مات أمل السفر فى نفسه ، لكنه لم يغرق فى الأسى ، لأنه ما لبث أن شغل بمعاركه مع فرسان حياة ووحوش الفلاة ، ضاربا أروع المثل للتحمل والاقدام . والطريف أنه وجد الوقت بعد ذلك ليلهو ويصبو ، فـــكان يتعقب الجوارى أو كن يتعقبنه فيوليهن وده ، دون أن يتبذل ويتخلع ، وربما صـــاغ عواطفه الجياشة شعرا فيقول فيما يقول :

يا دهر مالك لا يصـــد ـك عن مساءتى العتـــاب
أمرضت من أهـــوى ويأ بى أن أمرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الـ أمراض لى وله الثواب

كذلك تمكن من القيام برحلة صيد طويلة زار فيها عدة مدن بعضها كان فى أيدى الفرنج ، واسترجع شريطا من الأحداث ان دله على شيء فعلى الفرقة التى مكنت الغاصبين من امتلاك أجـــزاء عزيزة من الوطن العربى ، وفى المقابل تجمع هؤلاء الغاصبون بعد أن كانوا شيعا وضربوا بمواضـــع الريبـــة بينهم عرض الحائط ، وغمرتهم فروسية خشنة وعارمة بعد أن رأوا تقلص نفوذ المسلمين عن صقلية وأقريطش ووقوعهم أسرى التحزب فى بلادهم ، فقدموا ولم يعد يجدى صدهم .

وأمام حصن الأكراد وقف طويلا ، فان صاحب حمص شاء أن يقدمه لريموند فسيطر عن طريقه على الممر الخطير الذى يصل بين السهول الساحلية ووادى العاصى ، ولو أنه قاوم كما قاوم أبوه وعمه فى شيزر لتغير الموقف كله على أكبر الظن . لكن لماذا يبعد وأبوه نفسه يحكى له أن سقمان بن أرتق عندما سمع لأول مرة بمقدم الصليبيين ــ وكان فى اجتماع بشيزر مع صاحب حلب للوثوب على دمشق لم يحرك ساكنا الا بعد أن ترامى اليه أن ديار بكر شقت عصا الطاعة على بنى أرتق ، وزاد فطلب من المجتمعين مساعدته .

وفى جبلة شاهد آثار المعركة حيث التقى ريموند بجود فرى دى بويون شقيق بلدوين ـ ملك أورشليم الآن ـ وأخبر بأن ابن عمار الذى كان ولى نعمة أستاذه أبى عبد الله الطليطلى سووم على امارته . فوافق ، ولكنه لم يمكث فيها الا ريثما يحقق الصليبيون غرضهم فى بيت المقدس ؛ فقد عاد ريموند اليها وبنى ازاءها قلعة على تل الحجـــاج أصبحت نواة لحى الفرنج ، وفى سنة ١١٠٤ تسقط طرابلس بعد وفاة ريموند ، وفى سنة ١١٠٩ تدمر مكاتب العلم فيها والمدارس التى كان يتردد عليها كبار علماء المســلمين وأدبائهم (١) .

تاريخ مخز فى جملته ، ويزيده خزيا تهاون الفواطم فى الدفاع عما كان بيدهم فى فلسطين ، وما يعمد اليه الباطنية الحشاشون اليوم من مد يد العون الى الفرنج بما يعينهم على تثبيت أقدامهم .

وكانت النتيجة التى انتهى اليها وأفضى بها الى رفاقه هى أن استبدال الحركة الضاربة بالخطبة البليغة عمل أساسى فى دفع المغيرين ، لكن ما السبيل الى ذلك ؟ ان لم الشمل فى اجتماعات تعقد لا يسفر دائما عن شىء ، والنية الطيبة وابداء العزم والأقسام

---

(١) للتأكد من صحة ما صدر عنه أسامة بن منقـــذ يحسن أن يراجع الكتابان التاليان :

S. Runciman : History of the Crusades, vol I, p. 97. Cambridge University Press, 1958.

R. Grousset : Histoire de Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, vol. I, p. 125, Paris 1934

مع المقابلة بما سجله ابن العـــديم فى منتخبات من تاريخ حلب ٥٧٨ وما بعدها (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين ـ الجزء الخامس) وابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ١٦٣ (ط . ليدن سنة ١٩٠٨) وابن الأثير فى الكامل ٨ : ٢٦٢ وما بعـــدها ، وسبط بن الجـــوزى فى مرآة الزمان ١٧ (ط . شيكاغو سنة ١٩٠٧) .

المفلطة عقاقير مخدرة أكثر منها أدوية للأدواء ، وقراءة أشعار الفرسان الأولين ورواية أخبار المغازى واسترجاع أيام ابن الجراح وخالد وطارق يقف أمرها عند حد الاثارة فقط .

لقد ترعرعت فيه روح النظر الناقد ، وهى الملكة التى تدعم الايمان وتجمع بينه وبين كل من يسعى جهده ليكون شيئا . ثم انه رأى الفرسان الذين على شاكلة أبيه وصديقه حمدات وغلامه أسد لا يؤدون تماما كل ما تستلزمه ضرورات اليقظة الحربية ، أى عليهم لاستكمال عملهم أن يكونوا ربيئة لا أن ينتظروا لحظة الطعان . واذا ما بثوا هنا وهناك وضربوا فى اغارات متكررة معاقل الافرنج ، أقضوا مضاجعهم ، وشغلوهم عما يستهدفونه من التوسع الاقليمى على حساب أقوام المسلمين .

وكذلك غدت حال أسامة طوال العامين اللذين أعقبا مصرع الاسباسلار مودود ، وكان قد أتم العشرين وعيون قومه ترمقه وقلوبهم ترعاه ، وصح هو عزمه على أن يكون للجميع .. فارسا عربيا يذود عن حمى المسلمين كل دخيل ، حتى ولو رفع فى هذه الغاية النبيلة حياته ، وانه وقد شاخ وهرم ليذكر الخطط والأساليب التى كانت تطوف برأسه فيعجب لماذا تعثر طويلا قبل أن يجد الحل النهائى .

(٤)

الصياد المقاتل

ما كان لأسامة بن منقـذ أن ينكر فى يوم من الأيام أنه أصبح انسانا موفقا ، بل انه على العكس يبدو دائما فخورا غاية الفخر بأنه يستطيع الوصول أو هو مسوق الى الوصول نحو ما يريد .. كالصياد الذى يرتاد آجام أفامية فتواجهه الوحوش وقد قدر لها ــ بعد مقاومة ما ــ أن تستسلم له !

لكنه الى جانب ذلك يقع على الصيد الثمين ، فالذئب مثلا أو الفهد أو الضبع مما لا يدخل فى تقديره اطلاقا ، والأسـد هو مناط أمله فى كل وقت ، وقد يعف عنه اذا كان صغيرا . فلماذا يكون صغير الهمة وهو قادر على أن يكون عظيما ؟ لقد نظر الى الحياة على أنها غابة تصطرع فيهـا الوحوش ، ومن واجبـه أن يتصيد الكثير منها .

ولقد أسعفته بنيته وملكاته التى أصلتها قدراته الواسعة على أن يصل سريعا ، ويصبح بطول قامته وقوة بدنه ووقفته المتأهبة دائما للهجوم البطل المرموق . وكان حين يمد بصره أو يرفع عينيه يؤكد أن وراء أنفه المقوس قليلا ولحيته المدببة ارادة يشعاها نفاد صبر ونفاذ بصيرة .

وفى مذكراته يعنى تماما بأن ينفض الغبار عن ملابسـه كلما اضطر الى الاعتراف بأنه التقى بالمحظوظين وأصابه حظهم ، فربما يكون أسهل على المرء أو ألزم له أن يقرر أن القدر اذا كان يتكلم

فمن حق الانسان أن يرفع صوته أيضا ، وهكذا لا يكون للحظ دور ما أو يكون له دور ثانوى على أكبر تقدير .

واذا نحن تابعناه وصدقناه فيما يرويه عن نفسه ، يكون من الضرورى أن نعترف بأنه لم يصبح الفارس الموفق الا بعد أن تعلم كيف يوفق . وهو لا يقتل وحشا ولا آدميا الا لأنه درب على قتلهما واحتاج الأمر الى ذلك تماما ، ولا بأس بعد ذلك اذا راح يردد أن الأعمار بيد الله ، وأن القتال لا يقصر عمرا قط ..

وابتداء من عام ١١١٨ حيث قتل الباطنية الحشاشون محمد ابن ملكشاه — فجمع ابنه السلطان محمود بين صاحبى حلب ودمشق نجم الدين ايلغازى بن أرتق وظهر الدين طغتكين — قوى أمله فى الخلاص ، وبخاصة عندما أعلن عمه سلطان أن شيزر تؤيد فكرة الاتحاد الجديد .

واذ تصطدم عمليات التنفيذ ببعض العقبات السياسية ، لا يجزع ، ولا يفزعه التأخير .. فالخطة التى وضعت واتخذت نبراسا لحياة أقوام المسلمين — وهذه تسميته — والعقيدة التى نظم هؤلاء فى ضوئها وجودهم كانتا واضحتين الى حد ان اخفاءهما أصبح من قبيل المحال ، ولعله حين لم يجد حرجا ولا اثما من اشتغاله بأمر الجوارى كان يزجى البرهان ازجاء على ذلك ، والا فما كان أسرع ما يجد من الشانئين ، وهكذا يتمكن من أن يقول :

لم يبق لى فى هواكم أرب	سلوتكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لى سبل السلو وقد	كانت لى الطرق عنه تنشعب
الام ومعى من هجركم سرب	قان وقلبى من غدركم يجب
ان كان هذا لأن تعبدنى الـ	حب فقد أعتقتنى الريب

أحببتكم فوق ما توهمه النـــا
س وخنتم أضعاف ما حسبوا

ومع ذلك فسرعان ما نغير حكمنا عليه اذا علمنا أنه لم يستكن الى واحدة قط ، فضلا عن أنه يصرح بأعمـــاله أن هواه مع غير الغيد ، ومن ثم فان علينا التماسه حيث تكون المخاطرة نوعا من التحدى لقواه .

هو يحكى أنه سمع ذات يوم صراخا بأن وحشا يرتاد دروب البلد ، ففزع الى ســلاحه وعبر الجسر فوق ديس الأعشـــاب والقصب ، غير أنه لم يكد يتوغل فى أحد الأدغال ـ وراء الوحش ـ حتى سأل « ماهو » فلما قيل له « انه ضبع » قفل راجعا وهو يستشعر تقززا ، فما لهذا الحيوان النتن يخرج ، وما لهـــذا المخاوق الذى لا يأكل سوى الرمم يحمل رمحه وخنجره ، وعجب أهله وقال لهم :

ـ اننى أعفى نفسى من هذه البهيمة الخبيثة ، وأتركها لأمثال اسحاق الحجام .

ولم يكن بد من أن يحتج ذلك اليهودى ، ويعبر عن احتجاجه بالقاء آيات من مراثى ارميا ، لأنها كانت كل ما يحفظ من التوراة.

ويحكى أيضا حكاية دنكرى ـ يقصد تانكرد ـ قبل أن يموت مع حسنون الكردى وذهابه بالفرس الذى سابق به الفرسان فى أنطاكية فسبقهم .. ولمــا أعرب تانكرد عن استحسانه رجاه أن يصطنعه ويطلقه اذا عن له أن يضرب شيزر فى المستقبل ، وقد حدث أن وقعت الحرب على ما مر بنا ، وأسر حسنون فأمر تانكرد عساكره بقلع عينه اليمنى برغم تذكيره بالوعد الذى قطعه على نفســـه ، ولم يخل سبيله الا بعد أن اشتراه مرشد بألف دينـــار وحصان أدهم من خيل خفاجة الممتازة .

وقد ود أسامة أن يلقن تانكرد درسا فى احترام المواثيق ، الا أن الموت اخترمه ، فلما دعاه روجر ليركب الحصان الأدهم أمامه ـ وقد عجز فرسان أنطاكية عن ترويضه ـ رفض قائلا :

ـ أنا لا أروض ولكنى أقاتل .

وأخيرا يحكى أن عمه عندما أعرب عن رغبته فى الانضمام الى الاتحاد الذى يدعو اليه السلطان محمود قال :

ـ لنبدأ بضرب أفامية فيكون هذا اعلانا منك بانضمامك الى معسكر السلطان محمود .

ويحدث أن يموت بلدوين الأول فى أورشليم (١) فيخلفه بلدوين الثانى الذى كان أمير الرها ، وهنا يبدأ ايلغازى بالزحف على هذه المدينة ويطلب من سلطان أن يناوش أنطاكية ليشغل فرنج الشمال ويوزع قواهم .. فتتحقق فكرة أسامة سريعا ، وبتحققها تشهد ساحات أفامية ضرباته القاضية ، ويصبح فى أنطاكية حديث الجميع . ولما زارها بعد ذلك بعد أن اتفق على الصلح استقبل استقبال الأبطال ، والتف حوله فرسان الأفرنج يدفعهم ـ عدا الاعجاب ـ فضول لمعرفة نوع السلاح الذى كان يضرب به والدرع التى كان يرتديها .

على أننا لا نتعجل الحوادث ، ونذكر أن ايلغازى بعد أن غزا الرها استنجد روجر ببلدوين الثانى فتلكأ عليه وان وقع معه اتفاقا يقضى بأن يرث كل منهما الآخر فى حالة موته ، ولما مد يده الى « يونس » أمير طرابلس نصحه بالمهادنة أو المماطلة حتى يصله

---

(١) كانت وفاته فى سنة ١١١٨ وقد بلغت مملكته أوج مجدها ممتدة من العقبة الى بيروت باستثناء صور التى بقيت فى يد المسلمين حتى سنة ١١٢٤ وعسقلان التى لم تسقط قبل عام ١١٥٣ ـ يراجع ابن الأثير ٨ : ٢٨٤ فى حوادث سنة احدى عشرة وخمسمائة هجرية .

مدد الفرنج . وقد اضطرته الظروف بعد ذلك الى أن ينزل بحقل الدم ـ وهو واد فى طريق حلب ـ فتعقبه ايلغازى بأربعين ألف محارب بددوا شمله فى معركة البلاط حتى لم يفلت من سيوف المسلمين سوى مائة وأربعين فارسا ، وكان من القتلى روجر نفسه فخلفه على أنطاكية بالدوين الثانى بعد سنة واحدة من تنصيبه ملكا على بيت المقدس أى فى سنة ١١١٩ .

وفى أفامية حيث كان أسامة يستنفر همم العرب والأكراد لنهب الزرع وضرب القلعة بلغه نبأ وصول بلدوين الى انطاكية وهو يظن أن ايلغازى فيها ، وحكى له عمه الذى كان متقدما بعساكره فى جبهة انطاكية أن هذا الأمير كان اذ ذاك فى « خماره » المعروف ، فقد كان من عادته أنه اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما . فشرب بعد كسر الفرنج ، وما أفاق حتى وصل بلدوين الثانى بقواته .

ومنذ عودة أسامة الى شيزر وهو يستشعر ضيقا ، ثم تنبه الى أن ما بين أبيه وعمه يؤذن بشر مستطير . وكان اللغط يملأ دور القلعة حيث يسكن بنو منقذ ـ أعمام أسامة وأولاد أعمامه ـ ونجم عن ذلك خروج بعضهم الى أقطاعهم ، ومن هؤلاء مرشد نفسه وكان قد طلب من أسامة أن يهيىء نفسه للزواج والتفرد بحياته فى مزرعته .

وكان من العجيب أن يحدث ذلك فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الصراع الاسلامى الصليبى ، بل الأعجب أن يقبض سلطان يده عن أخيه وأهله حتى يضطر هذا الى أن يبعث له بقصيدة يقول فيها :

فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى
وثلم منى صارما كان ماضيا

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منى جفوة وتنائيا

فأصبحت صفر الكف مما رجوته
كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا

على أننى ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذه السنون وداديا

فلا زعزعتك الحادثات فاننى
أراك يمينى والأنام شماليا

على أن توسط الأمير ظهير الدين طفتكين أتابك دمشق فى النزاع بين الأخوين عجل بفضه ، والتأم شمل الأسرة ثانية وأسندت قيادة الفرسان لأسامة بعد أن أقر له بالفضل والتفوق. وقبل أن يعقد على من ارتضاها لنفسه زوجا ، قام برحلة الى أنطاكية بينما عمه كان يضع خطة للاستيلاء على هذه البلدة العظيمة .

(٥)

مع فارس صليبى

تولته الدهشة تماما برؤية أنطـــاكية ، وكان قد اعتزم أن يستبعد الإستباقات ومباريات الفروسية من برنامجه ، وأن يقف كل أيامه على تفهم حياة الفرنج الخاصـــة ، اذ كان يؤمن بأن من أسباب قهر الخصم معرفته معرفة تامة .. بل لقـــد فكر فى أن يدرس لغتهم ـ كما يصنع أغلب الذين يختلطون بهم من التجار ونحوهم ـ وأن يحفظ فى كل يوم مائة كلمة يكرسها لهذه المعرفة الضرورية .

ولقد قيض الله له طبيبا نصرانيا نزح من المنيطرة وكان يتردد على شيزر قبل أن يتصل بالصليبيين ، فأعانه على ما يريد ، ووفر عليه كثيرا من الجهد وان ظلت النتيجة التى ابتغاها دون ما أمل . الا من بضع عشرات من الألفاظ التى تبين أنها من عدة لغات لا لغة واحـــدة . وبين البربرة الافرنجيـــة بالسقلاطون والبرونس والبرجاسى والزربول والداما ـ وهى تعنى الثياب المزركشـــة والأمير والبورجوازى والحذاء والسيدة ـ أدرك بعد الشقة بينه وبينهم .

واخذت روحه الناقدة تزن وتحكم ، وقسا فى حـكمه عندما حكى له الطبيب النصرانى أنه كان يتعهـــد مريضـــين فى أسرة أفرنجية ، ولما عز الشفاء استدعى طبيب أوروبى ، وبعـــد أن فحصهما قرر أعجب علاج . فأما بالنسبة للمريض الأول فقد أمر

أن توضع ساقه التى توجعه على خشبة غليظة ، ثم أشـــار الى فارس بأن يهوى عليها بفأسه فيقطعها بضربة واحدة . وأما بالنسبة للمريض الثانى ـ وكان سيدة ـ فقد أمر بحلق شعرها ، ثم عمد فشق على الرأس صليبا غائرا ودلكه بالملح رجاء أن يطـــرد من نفسها الشيطان !

وقد فارق كل من المريضين الحياة ، وأبعد النصرانى فى حين بقى الفرنجى ليمارس التطبيب بأساليب سقيمة تدل على تخلفهم .

ومن هذا التخلف عطلهم من الحمية والغيرة ـ وهما فى نظره آية الرجولة ـ حتى انهم ليسمحون لنسائهم بالاختلاط والظهور مع الرجل حيث ينبغى أن يحتجبن ، بل لقد رأى بعض النسوة وقد ليسن الشفوف المطرزة وجلسن على الدواوين يصغين الى أنغام العود والرباب .

وأكثر فظاعة من ذلك أساليبهم فى معاملة المذنبين ومعاقبتهم بالماء أو المبارزة ، وأرجلهم مصفدة حتى الموت ، دون أن تكون ثمة حاجة الى الاحتكام لقاض يفصـــل ويأمر بتوقيع العقوبة وطريقة تنفيذها .

وشاهد مجالدات الفرسان فاعترض على خشونتهم التى كان ينبغى الاستعاضة عنها بدقة المراوغة ، واقترح أن توضـــع على الخيل الدروع .. لكنه دهش غاية الدهش عنـــدما قيل له ان للفرسان مجلسا له الحق فى أن يحكم ولا يرد حكمه أحد مهما تكن منزلته ، واذا كانت مهمة كل فارس محفوفة بمظاهر القداســة فانما لأنه اغتسل بماء الكنيسة المبارك وتناول العشـــاء الربانى بعد أن يفضى للقس بذنوبه وخطـــاياه . وعلى أى حال فان من فضائل فرسان الصليب الشهامة واستعدادهم فى كل وقت لايواء الأرامل والاقتصاص للمظلوم ، وقد لخص أسامة لبعض الداوية

واجبـات الفارس المثـالى فى عبارة موجزة هى « القوى للضعيف والفرد للكل » .

ثم كان لابد أن يرحل ، فقد نمى اليه أن خيل شهاب الدين محمود بن قراجا اجتاحت « سروج » وراحت تغير على شيزر ، وكانت هذه هى الاغارة الثانية . وأما الأولى فقـد وقعت أوائل العام ـ ٥١٤/١١٢٠ ـ ويذكر هو كيف كان وفرسان القلعة على فسحة من البلد ، فلبست كزاغندى (١) وركبت حصانى وأخذت رمحى ومعى أبى على بغلة فقلت له :

ـ يا مولاى ما تركب حصانك ؟

قـال :

ـ بلى !

وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفى عليه ألح على أن يركب حصانه الى أن وصلنا الى البلد وهو على بغلتـه ، فلما عاد أولئك وأمنا قلت له :

ـ يا مولاى ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع ؟

قـال :

ـ يا ولدى فى طالعى أننى لا أرتاع !

وشاء أمير أنطاكية الذى أعجب بشمائله أن يجعل من سفره فرصة أخيرة يعرب له فيها عن تقديره ، فأمر بثلة من الفرسان ترافقه حتى مشارف أنطاكية ويدع بقية الطريق نحو أفامية الى بدرهوا أقدر فرسانه على الاطلاق .

---

(١) الكزاغند : سترة تقوم مقام الدروع .

وكان هذا الفارس أحد البارزين فى جيش بلدوين الأول ، وقد ذكر لأسامة أن مادعاه الى ترك أورشليم بعد وفاته تهاون بلدوين الثانى وغروره ومحاولته الايقاع بين الاسبتارية والداوية مع أن الواجب يقضى بالتآخى تحت لواء يسوع الرب . وأعلن عن طريق ابن سوتكين أن المعارك التى ستدور بين حماة وشيزر ـ كالتى دارت ـ لن تسفر عن شيء ، لأنها أشبه بأعمال النهابة والحشاشية ، كما قال ان اليهود الذين تكالبوا على الخدمة فى بلاط الأمراء الافرنج انما يضعون مخططا للاستيلاء على أورشليم .

ـ أنصطاد غدا فى بعض الطريق أيها الأمير ؟

ـ أظن أننا لا نستطيع .

ـ أتشهد فى قلعة المضيق سباق الخيل ؟

ـ ولا هذا ...

ـ انك تعس ، فالصيد والخيل هما بعد الحرب ما يدفعنى الى ابقاء فى الشرق .

ثم حكى لهما ـ أى لأسامة وابن سوتكين ـ أن أعظم فارس فى حصن شيزر هو أبو محمود جمعة النميرى ، وأن أطيب مجالد هو عتاب العلاق وأن أخطر أمير مسلم على أنطاكية لم يظهر بعد وأن يحيى بن صافى الأعسر وسهل بن أبى غانم الكردى وحارثة النميرى وفارسا رابعا لا يذكر اسمه كانوا ضحايا سيفه قبل أن يفقدوا من أشهر فرسان شيزر .

وقد لحظ أسامة أن بدرهوا لم يكن يسهب فى الكلام الا بعد أن يفرط فى الشراب ، واذن فلابد أن تكون كل بضاعة هذا الفارس الثرثار ثرثرة ، لكنه بدأ يصدقه أو يهتم بما يدلى به عندما قال :

ـ لا تحسب أنى أفقد وعيى اذا شربت .

قال أسامة بعد أن ترجم ابن سوتكين :

ـ وهل قلت هذا أيها الفارس ؟

قال بدرهوا بعد أن سكت قليلا :

ـ الخمر تقتل أيها الأمير .

فسأل أسامة :

ـ وهل قتلت أحدا ؟

فأجاب بدرهوا :

ـ قتلت ايلفازى فى أنطاكية .. ألا تذكر ؟

وعجب أسامة ، غير أن بدرهوا لم يشأ أن يمنحه فرصة واحدة للتفكير ، فقال له :

ـ أتحب أن تسمع ماذا كان بينى وبين جمعة ؟

وراح ينشر من الماضى صفحات طريفة .. كان هذا الفارس على قلعة المضيق فى أفامية ، ووصل جمعة أكثر من مرة الى هذه المدينة ولم يهيأ له أن يلتقى به . وكذلك وصل بدرهوا الى شيزر مرات عدة وسأل عن جمعة دون أن يلقاه ، وفى احدى المرات خرج مناديا فى عسكر المنقذين وهو على الشاطىء الآخر من العاصى :

ـ فيكم جمعة ؟

قالـــوا :

ـ لا ..

ولما هم بالرجوع قالوا :

ـ فينا غيره أيها الملعون ..

وهكذا خرج اليه الأعسر وأصحابه ، ومن السهل بعد ذلك تصوير الباقى .. فقد كسرهم وردهم الى العرب مثخنين بالجراح وهدنا لحمئة من التشهير والتنديد ، وكان جمعة من أشد الناس حملة عليهم . ماذا كانت النتيجة أيها الأمير ؟ لابد أنك تعرفها ، فليس من داع الى أن أقرر أننى أنا سبب تفوقهم ، لأنهم عكفوا على التدريب . ان المحارب الذى يضع سلاحه ساعة الراحة يقتطع من عمره يوما .. !

واقتربوا من بعض الغابات ، فأنشأ بدرهوا يتحدث عن قنص الحيوان المفترس وكيف يختلف عن اصطياد الغزلان والطيور والأرانب بالبازى وبالباشق .. هنا المتعة تختلف عن المتعة هناك، وربما يكون قهر الموت فى مواجهة السبع — مثلا — هو الذى يضاعف من لذاذة الأنتصار ، ومع ذلك فيجب أن يكون فى تقديرك أيها الأمير أن الحيوان المفترس أنواع ، وأخطر هذه الأنواع هو النمر ، ولذلك فأنا أحبه وأسعى وراءه فى الفارات والمجاحر .

— هو يشبه الضبع فى ذلك .

— فليكن

— وقد يرتاد المقابر .

— أجل ... أجل .

— اذن فهو حيوان وضيع !

لكنه خطر ، وله من خفة الحركة والقدرة على التربص ما يكفل له الحفاظ على حياته .. لكن أهذا كل شيء ؟ ان كان ، فما أشبه به يونس حاكم طرابلس الملعون يوم أراد ضربنا ، بل ما أشبه به ابن قراجا .. كل منهما على أى حال يقفز ويخاتل ، يتسحب تسحب الثعبان ، والا فهو أسرع من الهواء .

ـ كأنك لا تواجه من الوحوش الا الأسد أيها الأمير ؟

ـ مالم تكن هناك حاجة الى غيره ..

ـ ان كنت كذلك فبيننا من الأسود آلاف !

ولم تكن هذه كل بضاعة بدرهوا ، فانه بعد أن أكد انتماءه الى « الراعى الصالح » الذى عاد جنوده الى أورشليم بعد ألف ومائة من السنين ليرثوا الحياة الأدبية قال :

ـ أتعرف أيها الأمير ، ماذا كنا نفعل ونحن على أسوار بيت المقدس وافتخار الدولة فيها يرمينا بالموت ؟

أجاب أسامة :

ـ رميتموه بالموت أيضا .

فقال بحماسة وانفعال :

ـ ولكننا كنا ننشد « سلام لك أيها السيد الكريم ، ما أغزر الدموع المنسكبة من عيون شعبك حينما طالعوا أسوار وطنك وأسوار أورشليم » وبعد أن طفنا حول المدينة صعدنا جبل الزيتون حيث قام فينا بطرس الناسك واعظا ، ثم اقتحم تانكرد قلب المدينة ، فأما من اعتصم بحرم المسلمين فقد وضعت فيه السيوف، وأما من لاذ بالمبكى فقد عفر الجبين بالتراب ففاز بالحياة ولم يمت الا من كان ينشد « عادل الرب لأنى عصيت أمره » (١) .

---

(١) يحسن أن يقابل هذا بما سجله وليم الصورى William of Tyre فى كتابه المعروف A. History of Deeds Done Beyond the Sea, Tr. Emily A. Babcock and Krey ; New York 1943.

وقد علق البروفيسور جروسيه على ذلك فى كتابه المذكور بالحاشية رقم ٨ بقوله ان تلك الواقعة جعلت الصليبيين لا يذكرونها الا وتشمئز نفوسهم وتقشعر أبدانهم .

واستشاط أسامة غضبا ، وبدأ يضيق بالفارس الصليبى ، وتاق الى الساعة التى يصل فيها الى أفامية فيتركه ، غير أن اليوم التالى كان يدخر له الكثير من القلق ، فقد أخبره بعض المارة أن الحمويين جمعوا لشيزر مئـــات من التركمان وغيرهم وباسطوها على فسحة من البلد .. فقرر أن يختصر الطريق باجتياز منطقة الغابات ، وكانت مناسبة طيبة لبدرهوا أن يفيض فى فضائل السفر داخل الغابة .. ففضلا عن تجنب غارات النهاية وملاحقات بدو أفامية فان فى الآجام ما يملأ النفس خشوعا ، والفرسان محتاجون دائما الى قدر من الخشوع . وقد يغنمون وحشا لا بأس من أن يكون أسدا ما دام هذا يرضى الأمير ، وربما استمتعوا برؤية بقايا الفيلة التى جلبها سلوقس من الهند ليستعين بها فى شئون الحرب والتعمير .

ـ أتعرف شيئا عن سلوقس ؟

ـ قرأت انه استقدم خمسمائة فيل .

ـ بل تسعة وخمسين وأربعمائة .. أسكنها فى غابات أفامية ووجدت هى فى طيب مناخها وغزارة نباتها وتعدد برك مائها من رفاه العيش ما مد الله فى عمرها حتى اليوم .

ـ وكم تظن يبلغ اليوم عددها ؟

ـ لم ألتق بها ولكن الناس تتكلم عنها .

ـ أشاهدوها بأنفسهم ؟

ـ أنا لم أشاهد الا حمر الوحش وقطعان الغزلان والأسود .

ـ وهل لم تر نمرا قط ؟

ـ فى قصر انطاكية نمر .. ألم تره ؟

ـ لا ولله الحمد !

كانت المنطقة تزهو بخضرة تتضاءل بجانبها كل خضرة شيزر والأشجار الضخمة تعانق الأشجار الضخمة ، ومن قلب الغابة تتعالى الأصوات من ثغاء ونباح وعواء وهدير ، وفى الجو حومت النسور وراحت تنعق .. أنا قرأت عن كتاب عربى لا أذكر اسمه الآن يصف أسدا كان فى مثل هذه الغابة تماما ، ومن حوله الأتباع من الحمر والضباع والنمور وغيرها ، وكان الأسد يظن نفسه قادرا على كل شيء حتى أقض مضجعه حيوانان صغيران ضعيفان ، أقرأت هذا الكتاب ؟

ـ كليلة ودمنة ..

ـ لو أن هذا الأسد عاش هنا لكان لى من شأن آخر ، ولكن يبدو أننا سنجد فى ايلفازى أسدا رائعا ..

ـ هل تسمع شيئا ؟

ـ أين ؟

ـ هنا ..

ـ لعلها حية ..

ـ الحية لا تثيرها دوابنا ..

وفى اللحظة التالية كان كل شيء قد انتهى ، أو كان بدرهوا بين فكى أسد لم يدر أحد كيف قفز قبالتهم . ولم يكن من سبيل الى أن يرتفع رمح واحد فى وجه الحيوان الضارى ، فقد جفلت البغال ، وتوارى بدرهوا ولا يزال صراخه يرن فى الآذان حتى انقطع الى الأبد .

(٦)

قتال فى سروج

عندما دخل أسامة بندر قنين ودعه ابن سوتكين على أن يوافيه من غده فى القلعة . وكانت القرية تبدو مقفرة موحشة ، واستشعر هو أنه موحش أيضا . وقد أخذت الرياح تحمل له سموم الصيف القائظ ، فيحث بغلته الى الضيعة التى أقطعها له عمه قرب البلد على ألا يمكث فيها طويلا ثم يقصد الى القلعة يسلم فيها على أهله وينضم من فوره الى الجيش المحارب .

ان عمــــه لا يزال يبحث عن طريق الأمان وأبوه الذى جاوز الستين ينظر الى المستقبل نظرة قلق ، وبقية أمراء بنى منقــذ موزعة بين أن تستغل شيزر الهـــدنة التى وقعت بين ايلغازى وبلدوين الثانى ـ وتنتهى فى مارس من عــام ١١٢١ ـ فتضرب أنطاكية وبين أن تستغل فرصة الهدوء فتقضى على ابن قراجا .

وراحت شواظ النار تسفع وجهــه ، فما كل ولا استشعر ضيقا . وعندما التقى بأول صبى من صبيان شيزر لوح له ، ثم التفت الى أبيه أو جده وكان فى قارب صيد صغير وسأله :

ـ كيف الحال يا عم ؟

ـ الحمد لله . .

ـ وأخبار الحرب ؟

ـ مادام ابن قراجا بعيدا فالدنيا بخير . .

ـ ما قتال اذن ؟

ـ قد يكون القتال فى سروج ..

ومرق أسامة كالسهم فوق الأخاديد الكثيرة وحرج السندبان والقضب .. ها هنا دارت المعارك مع عساكر أنطاكية ، وسجلت الأحجار حكايات كثيرة عن البطولة والانتصار . لكنه وجد باب الجسر موصدا ، فاستدار الى الباب القبلى ، ورآه الديدبان ، ثم تصايحا :

ـ كلمة المرور

ـ أنا مؤيد الدولة

ـ معذرة يا سيدى .. كلمة المرور

ـ اذن أين الجماعة ؟

ـ فى أقصى الوادى

ـ أى وادى ؟

ـ سروج ...

هذا الغبى يخبر عن الجماعة ويخاف من فرد يدخل الحصن ، وبعد ذلك أعجب كيف ينفذ الى الافرنج ما يكشف عن خبايانا ؟ وما لبث حين تبددت خواطره أن رفع عقيرته بشعر كان قاله :

أحبابنا كيف اللقاء ودونكم
عرض المهامه والفيافى الفيح
أبكيتم عينى دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح

ثم توقف وهو ينحى على نفسه باللائمة ، وأخذ يتلفت حوله ، الا أن الطرقات كانت خالية . ولقد بدا له أن يأوى الى دار أحد أصدقائه فيقيل فيه ، لكن رغبته فى أن يقف على ما يجرى فى

الوادى لم تدع له سبيلا الى ذلك ، فمضى يطوى الأرض بقدر ما تستطيع بغلة أن تعدو .

وعند ثنية من ثنايا الهضبة ، وقبل أن يجد نفسه فى السفح تماما التقى عتابا العملاق فحيا وزعق ، وأنهى اليه أن أباه ممعود فى داره فلم يبرح القلعة ، بينما يقضى عمه وأغلب الأمراء نهارهم فى الوادى . كما أضاف أن أحدا لم يمت من شيزر ، على الرغم من أن شهاب الدين جمع خيرة فرسانه من أمثـال حضر الطوط وسرهنك وخلطخ وابن بلداجى .

ــ وقد تركت الساعة مولاى ذخيرة الدولة أبا القنا فى معركة مع غازى التلى قرب الجلالى .

ــ والظافر ؟

ــ من يثبت حتى مغرب الشمس

ــ اذن دع لى جوادك وخذ هذه

وأسرع فهبط الى الوادى ، فاذا المعسكر هائل فسيح كأنه قرية من قرى شيزر . وكان كله مسورا ــ متى سوروه ــ ووراء السور وعلى طول امتداده خندق وضعت ازاءه كتل من الأحجار والأخشاب الضخمة والأوانى التى فيها النفط . وأما الخيم فقد وزعت فى أرجاء المعسكر بانتظام ، وبداخلها رقد المقاتلة فوق حشايا القش وهم يغنون ويتسابون ويسودون وجوههم التى فى لون الزيتون بالتراب .

وفى الوسط نصبت خيمة كبيرة وقف على مدخلها الخفيض حارسان يحمل كل منهما فى احدى يديه أو على كتفه حربة طويلة مدببة ، وفى اليد الأخرى الدرع المستديرة بينما تدلى السيف من منطقة الخاصرة . ولم يدخل ، فقد رفض الحارسان ايقاظ عمه فكان عليه أن يتجه الى الجلالى ــ وهو أحد أفرع العاصى ــ ليشاهد ما بين ذخيرة الدولة وحضر الطوط . وهناك رأى أخاه

عز الدولة أبا الحسن فقبله ، وأقتعد حجرا الى جانبه وعيناه على المتجالدين .

وكان الاشتباك بين أبى القنا وحضر الطوط على أشده وكلاهما يراوغ ويدور دون أن يلهث وان تفصد جبينه بالعرق .. وقد أدرك أسامة أن أحدا منهما لن يقهر الآخر قريبا ، فأنصرف الى حديث مع أخيه قطعه اقبال جمعة النميرى وهو يصرخ مغيظا :

ـ طعننى سرهنك بن أبى منصور

ان سنوات الكهولة لم تستطع أن تفت فى عضده ، وبدا فى تلك اللحظة جبارا حتى تعذر على أسامة أن يتصور كيف ينال منه سرهنك وهو لا يزال فى مقتبل أيامه لم تصقله التجربة .

ـ واذا طعنك يا أبا محمود فأى شىء يكون ؟

ـ ما يكون شىء الا يطعننى مثل سرهنك ، والله ان الموت أسهل على من أن يطعننى ، لكنه تغفلنى واعتال زندى .

ـ هون عليك أبا محمود .

ـ ما هذا يكون .. لكنك عدت يا سيدى الأمير ، فأهلا بك فى شيزر .. لكن ما هذا يكون !

ـ أى شىء يا أبا محمود ؟

ـ هذا الغر الذى يغافل فيضرب .. أنا لا أستطيع الصبر ، فلأمض !

ـ الى أين ؟

ـ اليه .. والله لأطعنه أو لأموتن دونه ...

ولوى عنان فرسه وقفل راجعا ، فى حين وثب حضر الطوط وثبة هزت ذخيرة الدولة ، فناوشه بطرف سيفه وأرتد الى الوراء

خطوتين فأصبح فى مأمن من ضربة قاتلة ، وهنا رفع فارس من المتفرجين صوته قائلا :

ـ يا أنتم هل عندكم سهام نلهو بها ؟

فتطوع متفرج آخر من الناحية المقابلة وأجاب :

ـ نعم وفستق نتراشق به !

وطارت حفنـــة من الفستق فى الهواء مشيعة بالضحكات .. أنا لا أطيق الانتظار ، فلماذا لا يكسر أحدهما على الآخـــر كسرة الأسد ؟ لكنهما يحافظان على أصول القتال ، ولا غرو فأحدهما أمير والآخر صنيعة عمه ، اذ كان عاش فى قلعة شيزر بعض سنى عمره .. وارتفع التهليل عندما زلت قدم الطوط فسقط السيف على مبعدة ، فوثب نحوه ذخيرة الدولة وركله بقدمه الى خصمه ، وعاد الصراع ثانية ، وفى تلك اللحظة قدم جمعة يضحك ...

ـ طعنته .. طعنته !

ـ الحمد لله

ـ لو لم أطعنه لفاضت روحى .

وتقدم جندى فأخرج دجاجة من خرج صفير على ظهره ، ثم جلس قرب قدمى أسامة وهو يقول :

ـ لا بأس على المتفرج من صدر دجاجة ينسيه صدور الفيد .

وكان أبو القنا فى تلك اللحظة تماما قد أراد أن يتحاشى احدى ضربات الطوط ، فاصطدم بفارس كان يحاول أن ينخس زميلا له غلبه النعاس ، فصرخ كالمتوجع :

ـ أوا ... ه !

ففتح الناعس عينيه كالمذعور وهتف :

ـ حسبت أمى تقبلنى والله .

فضحك الفارس قائلا :

ــ لعلها من بنى كلاب .

ولسوء حظه كان يمر اذ ذاك جندى شجاع اسمه ابن قنيب الكلابى ، فلما سمع عبارة الفارس قال وهو يدق على كاهله :

ــ مالك والبيوت العريقة يابن الأمة !

وعلى هذا النحو انقضى الوقت حتى غابت الشمس ، فدوى النفير أن ابتعدا الى لقاء آخر .. فهوى الاثنان كجذعى سنديانتين عجوزتين ، وقبل أن يهم بالتحرك مع أخيه الى فسطاط عمه لمحه قادما فى كوكبة من عساكره ، وسرعان ما ألقى بنفسه بين ذراعيه وهو يسمع فى غمرة عواطفه :

ــ لا جدوى من بقائنا هنا ، وعلينا أن نتحمل الى القلعة لنرى كيف نضرب أنطاكية .

(٧)
عام ١١٢٣/٥١٧

كان لابد أن يتم ابان هذا زواج أسامة بمن أختيرت له وارتضاها ، وكان لابد أن يوطد العزم على أن يبدو أبا صادقا لابنته التى من الله عليه بها وان يكن مجيئها قد نزل على قلب عمه سلطان بردا وسلاما ، لا لأنه يكره له أن ينجب الذكر ولكن ليكون مثله لا يعقب الا الاناث !

واقتضت الخطة التى أقرها بنو منقذ ــ بعد مشاورات ومداولات ــ أن يخرج أسامة الى أفامية وكفر طاب فى قوة ضاربة بعد أن استقر الأمر فيها وفى عزاز ومعرة النعمان لأنطاكية ــ بناء على شروط الهدنة المعقودة بين ايلغازى وبلدوين الثانى ــ وكان أمد تلك الهدنة قد انتهى ، وشرع جوسلان أمير تل باشر على أثر قيام بعض القلاقل فى وجه ايلغازى بماردين ، فأخذ يغير على القلاع الواقعة من منبج وحلب . وفى يونيو من سنة ١١٢٢ نزل ايلغازى ومعه ابن أخيه نور الدولة بلك بن بهرام فى تلك المنطقة ، ولما كان بلدوين الثانى موجودا فى تلك المنطقة آنذاك فقد تعين عليه أن يجابه ذلك التحدى ، فيضرب المؤخرة ، أى يحتل سروج وشيزر ليطوق المجاهدين ويقضى عليهم نهائيا .

ولم يغب عن ايلغازى هذا ، فبعث بنور الدولة بلك الى الجنوب فى الوقت الذى كان فيه أسامة يعود الى شيزر . وفى القلعة سمع أن جوسلان وقع أسيرا فى قبضة بلك ومعه ستون

فارسا أودعوا جميعا فى قلعة خرتبرت ، وبعد ذلك بشهرين تقريبا — أى فى نوفمبر من عام ١١٢٢ — مات ايلغازى فتوزعت مملكته بين ابنيه وابن أخيه وأحـــد أمراء بنى أرتق اسمه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار . فأخذ شمس الدولة سليمان ميافارقين ، ونال تمرتاش ماردين ، وظفر بدر الدولة بحلب ، فى حين احتفظ بلك ببعض المناطق فى شمالى سوريا وبلاد الأرمن (١) .

وكان هذا التمزق فى صالح بلدوين الثـــانى ، فراح يكيل الضربات هنا وهناك . فلما اضطر بدر الدولة الى أن يتنازل عن قلعة الأثارب له رأى أبو العساكر سلطان أن يخف الى بدر الدولة بنجدة ، غير أنه رأى أن يصطنع الحرص . فبدأ بايفاد ابن أخيه ليث الدولة يحيى بن مالك بثلاث كتائب للقتال شاركه فى قيادتها ميخائيل الفارس والأعسر ، وحمله عدة هدايا منها مصحف مذهب الأعشار ورءوس السور نسخه أخوه مرشد .

وبرحيل ليث الدولة اتخذت الاستعدادات لمواجهة أى هجوم، بخاصة أن الذين عادوا من الخـــارج أفادوا بأن الفوضى سادت ربوع البلاد ، وانتشر قطاع الطرق فى شعاب الجبال ، بينما أخذ أعوان بلدوين الثانى يصلبون كل من يتصدى لهم .

ونمى الى بنى منقذ أن ثمـة قوات صليبية تزحف فى اتجاه شيزر ، وكانوا قد وجدوا من الشيزريين من كشف لهم عن مخاضة يعبرونها — بدلا من عبور جسر أبى المتوج — الى الحصن ، وتبين فيما بعد أن الذى دلهم على موضع تلك المخاضة اسحاق الحجام بعد أن صار على حد قوله مستندا الى التوراة « السيد كعدو ، محق اسرائيل ، محق جميع قصورها ودمر حصونها » .

---

(١) أبو الفـــــداء ٢ : ٢٣٦ وابن الأثير ٨ : ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١١

William of Tyre Vol. I, pp, 496 .484,

وخرج مرشد وسلطان لاستطلاع أمر الزاحفين ، بينما بقى اسامة فى الحصن . وكان الفرنج قد انتهوا الى الموضع الذى دلهم عليه الجاسوس ، عبروا الماء وملكوا المدينة ، ونهبوا وسبوا وقتلوا، ونفذوا بعض السلب والنهب الى أفامية وماكوا الدور ، وعلق كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته . فلما أشرف أبى وعمى على الحصن كبر أهله وصاحوا ، فألقى الله سبحانه على الفرنج الرعب والخذلان . فذهلوا عن الموضع الذى عبروا منه ، ورموا خيلهم وهى بدروعهم عليها فى غير مخاض ، ففرق منهم جماعة كثيرة .

كان الفارس يغوص فى الماء فيسقط عن سرجه ويرسب بينما يطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض ، وهم فى جمع كثير ، وأبى وعمى معهما عشرة مماليك صبيان . .

وبالقضاء على المهاجمين والتمثيل ببعضهم انتظر بنو منقذ أنباء القتال فى الشمال ، حتى وصل اليهم أول تقرير ممثل فى ليث الدولة وقد رجع أغبر أشعث وتحيط احدى ذراعيه ضمادة ملوثة بالدم ، وفى الذراع الأخرى المصحف المذهب ، وأسر أحد الأمراء فتناوله منه فى الوقت الذى كان سلطان يهدر فيه قائلا :

ــ ماذا حدث ؟

أحك ياليث الدولة .. ماذا فعل الله بك وفعلت بعد أن سارت كتيبتك والكتيبتان العربيتان اللتان جهزهما بنو كنانة وقيس من شيزر ؟ قد يكون من العسير أن تحكى كل شىء بالتفصيل ، ولكن لابد أن تذكر ما يكفى لأن يكشف عما جرى منذ خرجت أنت وميخائيل والأعسر .. لقد طلبت أن ألحق بك ، ولكن عمى رفض وما أدرى لماذا ، فقل ماذا حدث ؟

ـ لقد قابلنا فرسان بغدوين (١) وسمحوا لنا بارتياد غابات أفامية بعد أن ذكرنا لهم أننا مسالمون لا ننشد سوى القنص .

قال سلطان :

ـ أتعنى أنهم فعلوا ذلك دون محاولة للتأكد ؟

فأجاب يحيى :

ـ سألونا أسئلة عادية ثم ..

وقص عليهم كيف ألقوا برحالهم ليلتئذ فى وادى الميمون ، ولما كانت الليلة دافئة فقد نام أفراد الكتائب فى العراء دون أن ينصبوا خيمة واحدة ، وصرخ سلطان :

ـ بلا حراسة ؟

ـ قالوا لا تخشوا الا السباع ومضوا فكان ذهابهم دليلا على حسن نيتهم .

ـ هـــراء ..

ـ أذكر كيف كانت النجوم تلمع فى السماء وكانت أصوات الغناء التى ارتفعت فى الوادى قد انقطعت تماما ، فقد كان التعب يملكنا تماما . وهكذا غشينا النوم ، بل غشيهم هم ، لأننى كنت متنبها تقريبا عندما سمعت صراخا مدويا يهز جنبات الوادى ، ولكن .. لكن ربما صحوت على ذلك الصراخ الرهيب ، وعندما حاولت أن أقف على قدمى غاصت كفاى فى شىء لزج ساخن ، ولدهشتى لم أتنبه لأول وهلة الى أنى كنت ممسكا برقبة صديقى ميخائيل وقد بتر منها رأسه ..

---

(١) بغدوين : هو بلدوين Boldwin الثانى الذى مات سنة ١١٣١ وكانت تلك تسميته عند المسلمين ، وأسامة نفسه فعل ذلك فى الاعتبار . وعندما تحدث عن سلفه فى كتابه « لباب الألباب » أشار اليه بقوله : بغدوين البرونس ، بينما كان يطلق على بوهيموند اسم ميمون ، وثمة واد فى نواحى أفامية أطلق عليه المسلمون واد الميمون ، وفى الكامل بغدوين أيضا والد انشمند بيمند .

وبكى ليث الدولة وانفعل الجميع سوى سلطان ، فقد قال بهدوء :

ــ لا مجال للدموع .. أكمل يا رجل !

ــ ناديت على الأعسر عبثا ، وكنت اذ ذاك أخوض فى دماء العرب وجثثهم تحيط بى من كل جانب حيث رقدوا ، والأصوات يامولاى .. الأصوات كانت لا تزال تدوى ، ولمحت من بعيد بعض الخناجر تعلو وتهبط بدقة ، فقد كان لا يزال بعض جنودنا يقاوم .

ــ وأنت .. أنت ياليث الدولة ؟

ــ لا أرانى خجلا مما حدث ، فقد امتشقت سيفى واندفعت الى أمام وقتلت ثلاثة أو أربعة قبل أن أحاصر تماما ، وفى اللحظة التى لامست فيها أطراف الحـــراب كل جزء فى جسمى ارتفع صوت « اتركوه للمقدم » ونظرت الى صاحب الصوت فاذا هو اسحاق الحجام !

ــ اسحاق .. اسحاق الذى تجسس علينا ؟

ــ بسحنته الشيطانية وقد راح يتكلم كالمحموم « هو الوحيد الباقى .. لماذا بقيت » ؟ وبينما كنت أقاد الى فسطاط القائد علمت أن جنود بغدوين تجتاح مناطق حلب الشمالية ، وكان اسحاق الحجام قد وصل فأطلعهم على أمرنا ، وهكذا ذبحنا ونحن نيام .

ــ هذا الملعون !

ــ وفتشنى الشياطين ، ونزعوا منى المصحف فدفعوه الى مقدمهم ، ثم جررت الى خارج الفسطاط لأودع مركبا من مراكب السجن . وكان النهار قد طلع فتمكنت من أن أرى الافرنج جماعات يخترقون الوادى لينزعوا عن رفقائى الصرعى ملابسهم ويستولوا على أسلحتهم وميرتهم .

ــ كم كان عدد هؤلاء الكفار ؟

ـ حوالى الألف تقريبا ..

ـ وماذا فعلوا بالقتلى ؟

لا أدرى ، فقــد طلبوا منى أن أبرح الوادى مسرعا اليـك يامولاى .. قال لى اسحاق على لسان مقدمهم « لولا أننى أريد أن يتصل أحد بأمير شيزر لقتلتك بكونت جوسلان ، ولكن أعد هذا اليه » ودفع الى بالمصحف بينما كان يستطرد « انه كتابكم المقدس .. هه ؟ اذن قل لعمك اذا أردت أن تحفظ له قدسيته فسلم لنا شيزر فى أمد نهايته شهر نوفمبر من هذا العام » .

ـ أسر جوسلان فى شتنبر ويريدون شيزر فى دجمبر ، وقد مات ايلغارى فى نوفمبر كأنهم ظنوا أن الثمــر حان قطـافه .. ما اسم هذا المقدم ؟

ـ ربما كان فولك :

ـ فلأخرج اليه قبل أن ينقضى العام ..

وسرعان ما اتخذت الاجراءات للحرب ، وكانت الخطة تقضى بالاتصال أولا بنور الدولة بلك بن بهرام عند قلعة كركر الذى كان يحاصرها حينذاك فى الرها ، ومن ناحية أخرى يقود أسامة جماعات من فرسان شيزر لمناوشة الفرنج فى معرة النعمان وعزاز على أن يركز ضرباته على قلعة الحصن بأفامية ..

ويحكى أسامة فى مذكراته كيف قصد أفامية فى عشرين فارسا فقط ، وكانت أنباء بانتصارات بلدوين الثانى قد أخذت تنتشر انتشار النار فى الهشيم ، فلحق به قوم من النهــابة نزل بهم حيث اعتاد أن ينزل كلما خرج لقتال افرنج انطاكية . وما ان تفرق أصحابه وسط المزارع حتى خرج عليهم فرسان الأفرنج فضجوا ضجات عظيمة وارتبكوا ، الا أن أسامة صرخ فيهم ونظم صفوفهم واندفع الى أول فارس يتقدم صف الصليبيين وكان قد ألقى عنه درعه وتخفف لتسهل عليه المراوغة .

كان فارسا عظيما ولكن أسامة ظهر عليه .. وأكبر الظن أن الاعداء لم يتوقعوا هذا الحدث المباغت فأدبروا بخيولهم ، فما أسرع مالحق بهم أسامة وتحته فرس أخضر مثل الطير . وقد لحظ أن فى المؤخرة فارسا على حصان مثل الجمل ـ فكهذا وصفه بنفسه ـ وكان بالدرع ولأمة الحرب . كان يتأخر ، فظن أنه يريد أن يفاجئه فيكر عليه ، لكن هذا الفارس أخذ يضرب حصانه بمهمازيه ليسرع والحصان يبطىء ويلوح بذيله .

وفجأة استدار الحصان ، ووقع الصدام ـ وكان أسامة مستعدا تماما ـ فحمل على خصمه برمحه حملة أنفذت الرمح فيه قدر ذراع ، وخرج هو من السرج لخفة جسمه وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، وعندما أخذ يجذب رمحه متراجعا كان زملاؤه قد لحقوا به بعد أن قضوا على معظم خصومهم .

ومع ذلك فلم يكن ظفرى بالفارس كاملا ، وكادت مشيئة الله . بذلت مافى طاقتى وأحسنت الطعنة ، ورآنى أحد غلمانى فظن أنى هالك فطار الى أبى وعمى فأمرت فارسا أن يلحق به أو يسبقه وقلت « تسرع الى شيزر وتعرف والدى بما جرى » ، لكن الغلام وصل أولا ..

ـ أى شىء لقيتم ؟

ـ يامولاى خرج علينا الافرنج فى مئات وما أظن أحدا يسلم .

ـ والأمير ؟

ـ رأيته قد لبس وركب الخضراء و ...

ودخل الفارس فى اللحظة المناسبة ووقف الأب على الحقيقة ، الا أن أسامة عندما رجع مظفرا بعد أيام قضاها متجولا فى كفر طاب والمعرة قال له أبوه :

ـ كان حقا أن نتكلم عما فعلته يا أبا المظفر ، ولكن ما فعله نور الدولة بلك أولى بالكلام .

ـ وماذا فعل ؟

ـ أسر بغدوين الثانى نفسه (١) .

(١) ذكر أسامة ذلك فى « الاعتبار » ويمكن مقابلة احداث هذا الفصل بما رواه ستيفنسون ووليم الصورى ، فلا نجد أى خلاف الا فى تفصيلات ثانوية .

(٨)

بداية الجفوة

استطاع نور الدولة أن يخطف الأبصار بعد ذلك ـ فقد غدا بطلا عظيما من أبطال التاريخ ـ لكن شـــاء أن يمنح شيزر بعض الحق فى أن تذكر الى جانبه .

ذلك أنه بعد أن أودع بلدوين الثانى حصن خرتبرت بديار بكر وثب على حلب فملكها ، فى الوقت الذى خانه فيه بعض الأرمن فساعدوا أسراه على الاستيلاء على الحصن . وما بلغه النبأ حتى خف الى خرتبرت ليكتشف أن جوسلان تمكن من الهرب ، فنقل بلدوين الثانى الى حلب ، وشغل نفسه بعد ذلك بمعارك وضعت حـــدا لحيـــاته فى مايو من عام ١١٢٤ تاركا حلب لتمرتاش ابن ايلغارى .

واذ يرى تمرتاش أنه لا قبل له بمواجهة الفرنج كما كان يفعل نور الدولة يبعث الى أبى العساكر ســلطان يستشيره فى الأمر ، وكان اذ ذاك فى أسوأ حالاته ـ لأن زوجه وضعت بنتا فى حين أنجب أسامة عضد الدين مرهفا ـ فاقترح المفاوضة من أجل صلح يأخذ على عاتقه اقراره . قد بدأ يتصل بالفرنج واتفق معهم على اطلاق سراح بلدوين الثـــانى بشرط أن يتنازل لتمرتاش عن الأثارب وكفر طاب وعزاز ، ويدفع له بثمانية آلاف دينار فدية يعجل منها بعشرين ألفا .

ولقد بلغ تحمس سلطان للصلح الذى وافق بلدوين الثانى على

شروطه أن رهن أولاد اخوته ـ ومن بينهم أسامة ـ لدى تمرتاش ، فساروا الى حلب على أن يبعث اليه ببلدوين الثانى . ولما وصل هذا الى شيزر أكرم سلطان وأخوه وفادته على ما يصرح به أسامة فى مذكراته ، وأبقياه حتى قدمت ابنته وابن جوسلان وعشرة آخرون من كبار الفرنج بقوا رهائن فى القلعة ، ففكا قيوده وأطلقاه . غير أنه لما وصل الى أنطاكية نقض عهوده بحجة أنه لا يملك التنازل عن أملاك هى فى الأصل لصاحب أنطاكية ، فوجد أسامة نفسه ـ بذلك ـ سجينا لا يجد بارقة أمل واحدة بعد أن رفض تمرتاش مناقشة الأمر معه أو مع أى مسئول من بنى منقذ.

وكان لابد أن تهيج نفسه ويتساءل أكان عمه محقا فيما أقدم عليه ؟ أما أخواه أبو عبد الله محمد بن مرشد وأبو الحسن على ابن مرشد فقد حملا عمهما التبعة كاملة ، وأما ابنا عمه ذخيرة الدولة أبو القنا خطام وليث الدولة يحيى بن مالك فقد أشركا عمهما مرشدا . واختلف سائر الأمراء المنقذين بين هذين الرأيين ، الا أن أحدا لم يكن فى مثل ثورة أسامة وحنقه ، وعبثا وجد وسيلة واحدة للفرار .

وبين المطارحات الشعرية ـ فقد كان بنو منقذ كلهم شعراء ـ والكلام فى الجهاد المقدس مضت سبعة شهور أو ثمانية ، وقعت خلالها أحداث انتهت باستيلاء قسيم الدولة آقسنقر السلجوقى أتابك الموصل على حلب ، فأطلق سراح المعتقلين ، ورجع أسامة الى شيزر وهو ينشد :

حبسوك والطير النواطق انما
حبست لميزتها على الأنداد

وتهيبوك وأنت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب فى الأغماد

ما الحبس دار مهانة لذوى العلا
لكنه كالغيل للأساد

وسمع عمه الشعر فامتعض ، لكنه لم ينح عليه باللوم لسببين : أولهما أن احدى نسـائه وضعت له مولودا ذكرا ، وثانيهما أن القتال احتدم بين أنطاكية وشيزر الى درجة من العنف احتـاج بنو منقذ الى خبرة أسامة لكبحها ، وكان على أنطـاكية اذ ذاك أميرها بوهيموند الثانى الذى أراد فيما يبدو أن يثأر من سلطان لأنه سـلم قسيم الدولة الاثنى عشر افرنجيـا فباعهم بالمبلغ المستحق على بلدوين الثانى وهو ثمانون ألف دينار .

وكانت ثمة هدنة بين حماة وشيزر فأرسـل شهاب الدين محمود بن قراجا ــ بتكليف من قسيم الدولة ــ الى سلطان يقول « تأمر أسامة يلقانى هو وفارس واحـد فى كرعة نبصر موضعا نكمن فيه لأفامية ونقاتلها » (١) وقـد كان ، فاجتمع عسـكرنا وعسكره فلقينا فارس الفرنج فى الخراب الذى لأفامية ــ وكانت فيـه قلعـة المضيق ــ فعجزنا عن قلع الافرنج من ذلك المكان ، فقال لى رجل من جندنا :

ــ تريد تكسرهم ؟

قلت :

ــ نعم

قال :

ــ أقصد بنا باب الحصن ..

قلت :

ــ سيروا !

---

(١) تلك كانت عبارة ابن قراجا على ما أثبتها أسامة فى الاعتبار ، ولكن لم نعثر على « كرعة » الا فى هذا الموضع ، ولعلها اسم موضع بعينه .

وندم القائل ، وعلم أنهم يدوسوننا ويجوزون الى حصنهم ، فأراد أن يردنى ، فأبيت ، وقصدت باب الحصن . وساعة مارآنا الفـرنج قاصـدين الباب عاد الينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا ، ثم ترجل الفرسان داخل باب الحصن ، وأطلعوا خيلهم الى الحصن وصفوا عوالى قنطارياتهم فى البـاب وأنا ورافع ابن سوتكين واقفان تحت السور مقابل الباب وعلينا شىء كثير من الحجارة والنشاب ، وشهاب الدين واقف فى موكب بعيد على خوف من الأكراد . فقد طعن حارثة النميرى ـ نسيب جمعة ـ فى صدر فرسه طعنة معترضة وشهاب لا يزال بمعزل عن القتال.

ومن خلال البردى والأثل والحشائش العريضـة والكهوف والأخاديد جاء اليه سهم من الحصن فأصابه فى جانب عظم زنده ، فما دخل فى عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءنى رسـول من عنده يقول :

ـ لا تزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا فى البلد ، فأنا قد جرحت وكأنى أحس الجرح فى قلبى ، وأنا راجع فأحفظ أنت العسكر .

ومضى ورجعت أنا الى الناس ونزلت على برج خريبة ، وكان الافرنج لهم عليه ديدبان يكشفنا اذا أردنا التقـدم ، لكننا تمكنا منه ، وملكناه . ثم رأيت أن أعود بعد أن فعلنا ما أردنا ، فوصلت العصر الى شيزر ، وشـهاب الدين فى دار والدى يريد أن يحل جرحه ويداويه ، ولكن عمى منعه وقال :

ـ والله ما تحل جرحك الا فى دارك .

قـال :

ـ أنا فى دار والدى .

ـ قال عمى :

ــ اذا وصلت دارك وبرأ جرحك فدار والدك بحكمك .

فركب وسار الى حماة ، فأقام الغد وبعد الغد ، ثم اسودت يده وغاب عن رشده ، ومات وما كان به الا فراغ الأجل .

وانه ليتمثله ــ وقد كان فى نظره نمرا كبيرا ــ وهو يحاوره عندما بلغه أنه لم يحاول أن يغدر بثمانية فرســان من الافرنج ، ونبههم قبل أن يقضى عليهم بصديق واحد كان معه .

ــ لم أكن أعرف يا أبا المظفر أن تلك شهامتك .

ــ مادمت قادرا فانى أضرب الضربة القاتلة .

ــ انى موافقك لكن ألا تكون الضربة أكثر نفاذا اذا جاءت من الخلف ؟

ــ ذلك والله غدر لا أرتضيه .

ــ ان كان فياضيعتى هنا !

ــ أتريد أن تنكص على عقبيك أيها الأمير فلا تحارب ؟

ــ أنا أحب العسكر أقوده للحرب فينتصر ، لكن اعجابى يكون أكبر وأنا أشهد من على شاكلتك فى الساحة .

ــ لقد سئمت عراك الســاحات وأريد أن أحارب الشياطين ليخلوا أرضنا .

ــ هذا عن نفسك وأما عن نفسى فلا أحب المجازر .

ولقد أفضى أسامة بهذا الحديث لعمه فما وجده مصغيا ، وكان العم اذ ذاك يكره نفســه على أن يصغو له ، وبينا ينقب فى ماضيه ــ وهو الذى اعتاد أن يكل اليه كثيرا من أموره الشخصية يقضيها له ــ عما ينم على اساءة أو تقصير فيعاتبه ، وبدت صفحات مشرقة بلغ فيها مكانة لا يعلو اليها أحد . وحسبه أن ما سنه فى

ميادين الحـرب أصبح قاعدة تتبع فى كل جيوش العصر ، ومن بينها جيوش الافرنج . فقد جعل القوس المصلبة والدرع الثقيلة فى نفس المستوى من الأهمية مع أهمية القنطارية التى يضرب بها الفارس المتقـدم ، وحرص على أن يضع المجيدون والأبطال شارات تميزهم عن غيرهم . ولم يكن يجد ضيرا فى أن يضرب ليلا ، ويعمد الى اصدار الأوامر بشعلات النار ، مع استغلال النقارة اذا كان جنوده فى موضع واحد . وأما رايته فقد كانت تحمل علامة النسر ذى الرأسـين وكان يذكر أنه نقله من نقش سومرى قديم .

وكان للحشاشين من الاسماعيلية منظمات للمقاومة تتدرج فى سلم المرتبة من الرفقاء والفدائيين واللصقاء ، ويتبعون مباشرة شيخ الجبل (١) ولهم زيهم وعلامتهم ، ولما كان من أهداف تلك المنظمات ضرب الحركات البانية فى العالم الاسلامى فقد وضع لمقاومتها منظمة « الفتوة » وجعل من أهدافها تدمير استحكامات الافرنج بعد أن توسعوا فى اقامة القلاع والحصـون فى الأيام الأخيرة . ودعا المبتدىء فيها بالرفيق ، ولا يتدرج فى سلم الترقية حتى يكون فدائيا ففارسا الا بعد اختبارات ومعارك عنيفة معقدة .

هكذا كان وليس ينبغى أن يقابل بالجحود ونكران الجميل ، ولكن شعورا بالحسد يجتاحه فى كل حين ، وطالما أطلق العنان لهواجسه وقد أصبح له من الذكور اثنان يستقطبان مشاعر الحنان التى كان يوليها له . ولم يعد بقادر على أن يخفى أن من بين الظروف التى حملته على أن يجفوه ــ وقد كان هذا بعيدا عن ذهنه منذ كان بلا عقب ــ الأثر الذى يتركه أسامة فى كل شىء حتى الملبس والمطعم .

---

(١) من أخطر شيوخ الجبل من الحشاشية راشد الدين سنان ، وقد شغل هذا المنصب مدى ثلاثين عاما من سـنة ١١٦٢ ، وكان رجاله هم الذين قاموا بمحاولتين خائبتين للقضاء على صلاح الدين الأيوبى .

واذ يفاتح أباه مرشدا فى الأمر ينصحه بأن يدع للخالق كل تصريف والا فمن الخطر مراجعته ، لأنه لا يريد أن يتعرض ثانية لمحنة سنة ١١٢٠ ، وأما أمه فترفض أن تفصح عن رأيها فى حين تتبرع جدته بقوله :

ــ ولداه أولى منك بقلبه يا أسامة .

وبتقييد حركات العم ورصد خطواته ، انتهى أسامة الى ضرورة البحث عن بديل . غير أن عناده المتأصل فيه أركبه الصعب حتى بدا أحيانا فى نظر بعض المقربين اليه أنه يبعد ــ بأفعاله ــ يوما بعد يوم عما يجب أن يوصف به من رزانة وزكانة .

لم يتطلع قط الى راحة طويلة ، ورفض نهائيـــا الدعة والاستقرار . فقد اعتاد أن ينام وهو قاعد ، وكثيرا ما تناول طعامه وهو يجوس بجواده خلال مزرعته ، ويحلو له وهو يبارى أحد أبناء أعمامه بالشطرنج أن ينشد من أشعاره وأشعار غيره ما يكلفه الوقوف ساعة أو أكثر . ولقد تعجبه احدى جوارى القصر ــ وهو المتزوج ــ فيداعبها حتى تظن أنه يريد الايقاع بها ، ولكنه سرعان ما يتحول الى أخرى ليؤدى معها الدور نفسه ، ولهذا قيل ان مؤيد الدولة لا تؤيده امرأة !

ومن ناحية أخرى واجه النمر ــ وكان عمه يرى أن فى صيده جسارة لا تكون فى صيد غيره ــ وقد روع أهالى قرية معرزف التى تقع جنوبى شيزر وعجز عمه عز الدين عن الايقاع به ، وتمكن هو من أن يقضى عليه برغم أنه كان يثب فى الهواء أمامه الى أربعين ذراعا . وعندما أخبره جوبان الخيل ــ أى السايس ــ أن فى أجمة تل التلول ثلاثة سباع خرج اليها فى ثلة من الفرسان وصحبه أخوه الثالث منقذ ، وقد استقبلتهم لبؤة هائجة تصدى لها منقذ فرماها برمح انكسر فيها فصرعت . وبعد قليل ظهر أسد جفلت منه

الخيول فعدت وعدا هو خلفها ، وانتظرت أنا وأخى لأننا كنا نعلم أن الأسد اذا خرج من موضع فلا بد من أن يرجع اليه .

غير أن وصوله عندنا صادف وصول بعض رفاقنا وفيهم مقاتل اسمه سعد الله الشيبانى ، وكالريح عبر علينا فضرب فى طريقه فرس الشيبانى ورماه ، فتمكنت منه برمحى فجندل . وأما الأسد الثالث فقد كنا ساعة لقائه نحو عشرين من الرماة أخذنا نرميه بالنشاب ، وأنا معارض الأرض أنتظره يحمل عليهم فأطعنه . وكان كلما وقعت فيه نشابة زأر وهز ذيله فأقول « الآن سيهجم » لكنه لا يفعل ويعود الى السير والمراوغة والزئير حتى وقع ميتا .

وكل الذى قاله عمه تعليقا على هذه الوقعة :

ــ أيش صيد السباع ؟ لكنه هـذا الأسـد الثالث كان كشهاب الدين .

ولم يدر العم أنه انتهك حرمة ميت ، فلما جلسوا للسمر لم تكن مشاهداته تنصب الا عليه ، وانتهى الى أن ذلك الرجل السمين الفياض حركة والمفعم بالنشاط أكثر بنى منقذ أثرة . حتى اذا كان بعد ذلك بأيام ودخل القلعة يحمل له رفقاؤه جثة أسد جندله برمحه قرر أن يفض يديه منه ، فقد قالت له جدته العجوز :

ــ يا بنى أيش يحملك على هذه المصائب التى تخاطر فيهـا بنفسك وبحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك وحشة منك ونفورا ؟

فقال :

ــ يا ستى انما أخاطر بنفسى فى هذا ومثله لأتقرب الى قلبه .

فقالت :

والله ما يقربك هذا منه وانه ليزيدك منه بعدا !

(٩)

نهاية صراع

أجمع الاخوة الأربعـــة أبو المفيث منقذ وأبو عبد الله محمد وأبو الحسن على وأبو المظفر أسامة ، على أن عمهم قرر فصم كل عروة تربطه بهم . وبدت تلك القطيعة لهم مرتكزة على فكرة بات وأصبح يدين بها فى أعماق نفسه ، ولم لا ؟ أليس هو القائل بعد أن قرأ كتابه « الشيب والشباب » الذى وضعه مؤخرا وأهداه لأبيه مرشد :

ـ ينبغى لكل من يود أن يكون كريما على نفسه أن لا ينتظر حتى يبيض شعر الهامه .

ولما سمعه يشكو فى بعض شعره ويقر أنه تعلم النفاق ليبدو جذلا طلق الوجه ، وذلك فى قوله :

نافقت دهرى فوجهى ضاحك جذل
طـلق وقلبى كئيب مكمـــد باك
وراحة القلب فى الشـــكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوى ذلة الشـــاكى

قال له وهو يضحك فيما يشبه السخرية :

ـ ألم أسمعك يوما تقول راحة القلب فى الطعان أو ما يشبه ذلك ؟

وما لبث أن طالع أهله بأن دور القلعة تضيق ببنى منقــذ ،

ولولا بقية من حياء ووجود الخاتون أمه ـ وكانت حازمة شديدة عليه ـ لأمر بأولاد مرشد من دون كل اخوته أن يلزموا ضياعهم ويسكنوا الى بيوتهم فيها . فهو يرى الهوة بينه وبينهم بعيدة حتى يتعذر تضييق المسافة وتقريب الشقة ، الا أن تتابع الأحداث كان يلزمه الاقرار بدورهم ، وبخاصة دور أسامة الذى لولا اصراره وعناده وبراعته العسكرية لأطيح باستحكامات شيزر ولسقطت فى أيدى الطامعين .

وفى ذلك اليوم أو فى أحد أيام سنة ١١٢٧ انتهوا فى لقاء بينهم الى أن يبدأ أسامة بطلب النقلة الى ضيعته ، فاذا وافق سلطان ـ ولا شك سيوافق ـ طلب الاخوة الآخرون الطلب نفسه ، فحفظوا للقلعة تلك الروح الطيبة التى طالما رفرفت بالعطف وخفقت بالتسامح فوق جميع المنقذين ، لا سيما فى مثل تلك الظروف الصعبة التى يمرون بها وتتطلب منهم تضافر الجهود وتكافل القوى .

لكن غزاة حماة ـ وعلى رأسهم سرهنك وغازى التلى وفارس ابن زمام ومحمود بن بلداخى ـ أجبروهم على التريث شيئا ، ولم يشعر أسامة الا وهو فى سروج ومعه اخوته وأولاد عمه مالك وقلة من المقاتلة ، وفجأة قدم عليه بعض جنده وقال له :

ـ انهم كمنوا لنا كمينا وأخاف ان حملنا عليهم ضربة رجل واحد هلكنا .

فقال :

ـ أحبس عنى اخوتى وبنى عمى حتى أردهم .

فصرخ بأعلى صوته :

ـ يا آل منقذ دعوا هذا يرد المغيرين ولا تتبعوه والا أكلوكم . وخرجت أناقل حصانى فتقهقروا ، ثم خرج كمينهم فجأة وأنا

على مبعدة من أصحابى ، فكان على أن أحمل عليهم ليتمكن جنودنا من الابتعاد .

وبرز ابن عمى يحيى فبرز فارس بن زمام ـ وهو عربى ـ مبادرا الى أعقاب عساكرنا ، فتصدى له يحيى برمحه طاعنا اياه طعنة أوقعته عن حصانه ، وسمعت أنا قعقعة الرمح ، فقلت مات . واندفعت أذود ، وأطعن حتى قلعتهم ، وأمن مقاتلتى .

ولم يشأ عندما رجع الى القلعة أن يقف صاحب القلعة على ما وقع ، واكتفى بتقديم تقرير شفوى لكاتب الديوان ، ثم طلب الى شاعره أبى فراس العامرى .

ـ وكان أبوه يحبه أيضـــا ـ أن يشيد فى مدحته الجديدة بحسن تدبيره على رهطه .

وقبل أن يمر أسبوع واحد ساق نهاية حماة قطعة أبقار من شيزر وحبسوها فى جزيرة تحت الطاحون الجلالى ، فخرج أسامة بجمعـــة النميرى ومولاه شجاع الدولة على أن تلحق به ثلة من الفرسان ، ولم يكن قد انقضى يوم على لقائه بكتيبة افرنجية وثبت على شيزر . فكادت الدائرة تدور عليه حينما هرب أصحابه ومن بينهم محمود بن جمعة ، وبالمناسبة حمل عليه أبوه حملة شعواء حتى اضطر أسامة الى أن يقول له :

ـ وحياتك يا أبا محمود أما تنهزم أنت عنى ؟

فقـــال :

ـ والله ان موتى أسهل على من أن أنهزم عنك .

ان الفيظ كان يدفعه دفعا ، وود بجدع الأنف أن يعلم ماذا

تريد حماة منهم وقد رغب ظهير الدين طغتكين الأتابك (١) أن تجمع الأيدى معا فى وجه أنطاكية ، وكانت أخبار عماد الدين بن آقسنقر أتابك الموصل تشجع على قيام هذا الاتحـــاد ، غير أن الامارات الاسلامية ـ فيما يبدو ـ لم تكن جادة فيما تدعيه من جمع الكلمة ووحدة الصف .

وتفقد أسامة الموضع ، ثم قال لرفيقه :

ـ يجب أن نعبر الماء لنصل الى الطاحون فنسترد الدواب .

لابد أن ننتهى معهم الى شيء ، ولابد أيضا أن يفهموا أنه مادام فى شيزر فكل مافيها محرم عليهم . واقتربنا من الماء فأصـــابت نشابة جواد شجاع الدولة فما شعرت الا وهو يخب الىعساكرنا ، بينما اتجهت نحوى نشابة أخرى فتلقيتها برقبة فرسى فجازت فيها قدر شبر ووالله ما جمحت ولا قلقت ولا كأنهـــا أحست بالجرح . وأما جمعة النميرى فقد آثر العافية ، وانفلت موليا ، ثم رجع بالفرسان كارين على فارسهم وراجلهم فدفعوهم دفعا حتى استنقذنا الدواب وفى بعض الطريق قلت لجمعة :

ـ يا أبا محمود تلوم ابنك لأنه ينهزم عنى وتخذلنى أنت ؟

فقـــال :

ـ والله ما خفت الا على الفرس فانها تعز على !

---

(١) الأتابك : أتابك لفظة تركية معناها « والد » و « بك » معناها « أمير » والأتابكة فى التاريخ كانوا بادىء ذى بدء أوصياء على صغار امراء الســـلاجقة أو مؤدبين ، ثم خلفوهم فى السلطة وأما ظهير الدين صاحب دمشق فقد كان مملوكا لتاج الدولة بن الب أرســـلان السلجوقى ومات ســـنة ١١٢٧/٥٢٢ ـ يحسن مراجعة الروضتين فى اخبار الدولتين لأبى شامة ١ : ٢٤ ط . القاهرة سنة ١٢٨٧ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥ : ٢٣٤ ط . دار الكتب سنة ١٩٣٥ وابن الأثير ٨ : ٣٢٧ .

ثم استجاب الطرفان لنداء السلام ، وتعين على أسـامة أن يترك القلعة على أن يلبى نداء عمه ما تعرضت شيزر لأى خطر . ولم يبد عمه سلطان أى اعتراض وان أظهر أسفه فضاعفت ذلك اللائمة التى كانت تقع عليه ، بينما استسلم الآخرون استسلاما لا يدع مجالا للشك فى أن أسامة كان كنزهم الذى فقدوه .

وفى غمـار تلك الحوادث ـ وكان عام ١١٢٨ قد انتصف ـ يزحف عماد الدين بعد امتلاكه نصيبين وسنجار وحران (١) على حلب ويستولى عليهـا ، ثم يفكر فى غزو دمشق التى احتسبت أميرها طغتـكين بن بورى واستقبلت ابنه تاج الملوك بورى (٢) ، فراح يشن حملات ضارية على الحشاشية يسـاعده فيها أخوه شهاب الدين محمود بن طغتكين .

---

(١) تقع هذه المدن الثلاث فى شمالى العراق ، أما سنجار فالى الشمال الغربى من الموصل ، وشماليها توجد نصيبين شهيرة العتاقة والقـدم ، وأما حران البلد الذى اشتق من اسمه هواؤه ولا يألف البرد ماؤه فغربى نصيبين على مبعدة وتنسب لابراهيم الخليل ..

(٢) لربط الأحداث بعضها ببعض ينبغى ان نذكر هنا أن تاج الملوك بورى مات فى سنة ١١٣١/٥٢٦ ، أى فى المصـاف الذى حضره أسـامة فى تكريت مع عماد الدين زنكى ، وخلفه ولده شمس الملوك اسماعيل الذى فتح بانياس من يد الأفرنج ولم يشكره أحد لفساد خلقه وبخله ـ راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢٤٩ ، ٢٥٠ وكذلك تاريخ أبى الفـداء ٣ : ٦ وتاريخ ابن الأثير ٨ : ٣٢٧ وأسامة بن منقذ الطاهر النعسانى ١٩ ، ٢٠ ط . الوطنية بحماة سـنة ١٩٢٩ .

(١٠)
الخـــروج

طوال الشهور القليلة التى قضاها مع زوجته وولده وغلمانه فى مزرعته ـ وقد انقطع فيها عن التردد على القلعة ـ انتهى الى أن بوادر التوحيد بين المسلمين أخذت بظهور عماد الدين فى الاعلان عن نفسها ، ولم يتردد قط فى أن يعترف بينه وبين نفسه بأن هذا الرجل أحق عمال الخليفة بالحكم .

واعتاد أن يزوره اخوته وبعض أقربائه الذين يعتدون أنفسهم تلامذة له ، ونفر من أعضاء الفتوة والفرسان الذين يتوددون اليه ويرغبون فى منازلته استكمالا لتدريبهم . ولم يكن يخوض مع أحد من هؤلاء فى شىء عن صاحب شيزر ، ويؤثر أحيانا أن يخرج معهم لصيد الغزلان والطيور والأرانب واليحامير عادلا عن القنص العنيف ايثارا للراحة .

وفى ســاعات الفراغ يروح يقرأ فيما جمــع من كتب كانت مشاغله العسكرية تدفعه عنها دفعا ، ودبج قصيدتين أو ثلاثا ، كما علق على كتاب « البديع » الذى ألفه ابن المعتز ، وقال لمولاه شجاع الدولة :

ـ اجمع لى من بين الكتب المرصوصة العمدة لابن رشيق والصناعتين للعسكرى واللمع للعجيمى ونقد الشعر لقدامة والحالى والعاطل للحاتمى فانى أزمع جمع ما تفرق فى هذه الكتب من نقد الشعر .

ورفع كتاب ابن المعتز بين يديه وقلبه ثم قال :

ـ كان مؤلف هذا الكتاب أميرا عظيما ولكن أهله ضيعوه !

ويتابع ابنه الذى حباه الله به يعدو فى الظلات الدوانى فيحس ملئه رضى وقناعة لا يرجو عليهما مزيدا ، ويخيل اليه أحيانا أنه ضيع أكثر من ثلاثين عاما دون أن يعرف لذة الاستقرار . ولقد بدا له بعد أن يستوفى حقه من الراحة أن يخرج فى رحلة طويلة ، يزور فيها القاهرة وبغداد ومكة وبعض عواصم الأقاليم وبعد ذلك يشرع فى الاتصال بعلماء الدين قصد العمل لديه .

وكان من الممكن أن يجرى كل شىء على ذلك النحو الذى ارتآه ، ولكن أمورا وقعت ذات يوم ـ ولم يكن اتخذ لها أهبة ـ غيرت الكثير لتجعله يقول بين الحين والآخر :

ـ قد يملك المرء أن يقول انه يفعل ما يريد ولكن هل يفطن الى الحبالة التى ينصبها له القدر ؟

استقبل صباحه كعادته مصليا وذلك قبل أن يتناول طعام الافطار ، ثم طارحا مرارة تحاول فى بعض الأحيان أن يشرق بها حلقه ، وخارجا على ظهر جواده فى رفقة شجاع الدولة لتفقد أحوال المزرعة . وانه لفى طريقه اذا أحد أشقائه يهل عليه ، فيسأله :

ـ ما وراءك يا على ؟

فيجيب :

ـ عساكر عماد الدين فى طريقها الينا ؟

فيصرخ وهو غير مصدق :

ـ ماذا تقول ؟

فيجيب :

ـ لقد قرر أتابك الموصل امتلاك الشام .

وتشتعل الدماء فى عروق أسامة ، فما برح القدر يجرى على ما قدر ، ويمضى الأمر الى الغاية التى يراها أليق بالأمة واجدر . وهكذا لا سبيل الى القول ان أيام الدهر التى هى دول بين الورى دالت عنا ، وانما قيل اذا رأيت المرء يكثر من التعجب مما يرى فى حياته ويسمع فذلك لسهوه عما مرت به عليه الليالى ، واذن ينبغى أن لا نضيع الفرصة بل نقبل على هذا الشىء الجديد ما كان تبصرة بصالح عمل وأى عمل صالح أكبر من لم الشمل .

فما العمل ؟

ان السياسة تقتضيه أن يكون ناصحا لآله ، ولكن هل يقبل عمه الا أن يعتده بالنصيحة لئيما ؟ وانه والله لا يعمل الا بقول من قال اذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه فى الرأى والزكانة والهيبة والتبع فليصرعه والا كان هو المصروع . ومع ذلك فان النصيحة مطلوبة لأنها حق ، ولابد من احقاق الحق . وقد أخبرنى الشيخ الصالح أبو الحسن على بن سالم بن الأعز على السنبسى رحمه الله مرفوعا الى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان امرأتين أتتا النبى فيما يرى ، واحدة عليها ثياب خضر ، والأخرى عليها ثياب صفر . واحدة تتكلم والأخرى لا تتكلم ، كلتاهما من أهل الجنة ، قال : تتكلمين وهذه لا تتكلم ؟ قالت : أنا اذ مت أوصيت وهذه ماتت بغير وصية فهى لا تتكلم الا يوم القيامة » ووصية الأحياء للأحياء أدب وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتحذير من زلل .

يجب أن يقصد الى عمه ويقول له لا تكن حربا على عماد الدين ، ومعنى هذا .. معنى هذا أن شيزر لا تكون لبنى منقذ ، وهذا أمر فظيع ، ومن الصعب أو من المحال قبوله ، كلا .. لن يذهب ، فان شيزر عزيزة عليه واذن فيم دعوته الى جمع الكلمة والجهاد تحت راية حاكم واحد قوى ، الآن آمن أن ما يذهب اليه

لا يجرى مجرى الدم فى عروقه ، والا فقد كان عليــه أن يقول : ليفعل مادام فى ذلك خلاصنا !

لقد استشعر فجأة أنه الضعيف المهزول أمام جبار يوشك أن يمد فى وجهه قبضة باطشة ، وبدل أن يستوضح جلية الأمر على ما اعتاد فى أى موقف آخر أحس ازدراء شديدا للحياة ، حتى اذا تنبه الى جماعة من فرســـان الافرنج يطئون بخيولهم أرضه كان فى أسوأ حالاته النفسية فصرخ :

ـ ماذا جاء بكم الى هنا أيها الشياطين ؟

كان بينهم سيدة ، وفارسان جذبا اهتمامه . أما الأول فقد كان يرتدى ملابس موشاة بالذهب ، وأما الآخر فقد كان مسلما ولعله من النصيرية لأنه كان يضع عمامة الحشاشين التى حاول أن يسترها بالكوفية . وأعاد أسامة السؤال وهو لا يتوقع أن يجيب أحد منهم ، الا أن مادار بينهم دفعه الى الاعتقـــاد بأن الفارس ذا الملابس المذهبة أحد أمراء الصليبيين ، فقد دارت كلمة «برونس» على لسان السيدة والفارس النصيرى .

ـ سنجتاز طريقنا من هنا لأنه أقرب ..

وكان المتكلم هو النصيرى ، وقد تأكد منه أسامة الآن ، فقال له بغضب :

ـ قل لسيدك والبرونس خذ الداما من أرضى واخرج بهـــا ســـالما .

ونقل النصيرى عبارة أسامة لتضرج وجهه الأبيض بالدم ، وامتدت يده الى خاصرته ، وهنا قال النصيرى :

ـ مادمت عرفت أنه أمير فلا تعترض طريقه .

قال أسامة فى تحد :

ـ ليخرج من أرضى وليدر حول التل بخيوله .

وتململ الافرنج ، فى حين ابتعدت السيدة ، ورفع النصيرى عن رأسه الكوفية وقال وعيناه تقدحان بالشرر :

ـ تنح عنا أيها ... أيها ...

فعالجه أسامة قائلا :

ـ انك تبحث عن كلمة أوصف بها أليس كذلك ؟

قال النصيرى وقد رمى بعباءته الى حيث كانت الكوفية على الأرض :

ـ أى شيطان أنت ؟

فتضاحك أسامة وقال :

ـ يا هذا الذى تبيعنا أراك تتكلم فلا تبين وتريد الوصف فتعييك اللغة .. ماذا تريد ؟ ان كان يسعفك الحظ فانقل لسيدك ما أقوله فانى لن أجهز عليك الا بعد أن ألقنك من ضروب الكلام ما يليق بوصفى .. فان أردت لهجة المهاجم المغوار وأنت أحد رفقاء الباطنية قلت لى أيها الجبان الرعديد ، وان شئت أن تنصحنى وتلاطفنى قلت أيها المتودد الرقيق ، واذا قصدت مجرد الوصف قلت : يا رجل ، فان حقرتنى عدلت الى يا هذا ، فلو شئت الاشادة قلت ياذا الأصل العتيق ، الا أن تكون رمت التعجب فقلت أيها الفذ الأوحد .. فان عمدت الى لغة التمثيل قلت يامن تقف كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد ، وفى باب تشبيهات العامة تقول يا أبهى من القمرين ، وفى لغة العسكريين لا تجد أفضل من ياصمصامة عمرو .. فهذا وأمثاله أيها الباطنى الخليع كان جائزا أن تعرفه لو كنت تأخذ بعيشنا ، أما وأنك مع هؤلاء وهم مثلك لا يعرفون لغتنا فانى معلمك ثلاثة أحرف أخصك بها ولك أن تخلعها عليهم فى أى وقت تريد ، وهى الباء والغين واللام ، فان جمعتها

على هــــذا الترتيب كانت الصفة التى تليق بك وهى « بغل »
وكان الفارس الأمير قد نفـــد صبره تماما ، فصرخ فى وجـــه النصيرى :

ــ قل له أنى الأمير فولك بن فولك الرابع .

فقال أسامة :

ــ يخيل الى أنى سمعت هذا الاسم ، على أنى أنا أســـامة ابن منقذ .

وعلى الفور تقهقر النصيرى وقد دلت ملامح وجهه على الجزع فى حين قال فولك بتأفف :

ــ لم أسمع بهذا الاسم .

فطلب أسامة من النصيرى أن يقول له :

ــ والآن سمعته هلم اذن .

قال فولك :

ــ الى أين ؟

فقال أسامة وهو يضع يده على سيفه :

ــ الى حيث ينقل لك سيفى ما عجز عن نقله لسانى .

فقال فولك وهو يمتشق حسامه برغم تحذير النصيرى له :

ــ كلام شاعر وضيع !

فقال أسامة وهو يندفع نحوه بسيفه :

ــ أنقل له عنى مادام اشتراك بنفسه ليموت ، أما أننى شاعر فهذا صحيح وقد ترك لك الوضاعة ترتع فيها وتنعم .. حسنا ، ومنى كشاعر يا فولك يابن فولك أعطيك الدرس

الأول حتى أصل الى العـــدد الذى وصله أبوك فى سلم الامارة .. حسنا ، أطلب منك أن تصلى لربك لأنى عند العدد الرابع أكون قد وصلت الى قلبك فتستحق قول من يقول « يرحمه الله ، فقد وقع فى حبالة ابن منقذ » .

وناوشه بالسيف ليختبره فوجده شديد المراس ، الا أنه مضى فى مداعبته فقال :

ــ قل له أيها النصيرى هذا هو الدرس الأول ، الشعر صناعة مادتها المعانى وصورتها اللغــــة وعناصر تكوينها الوزن والقافية .

وانقض عليه وخط بسيفه على كتفه ، فقد قدة واحـدة ، تراجع بعدها الى الوراء ليترجم النصيرى ، ثم استطرد :

ــ هكذا يجب أن نصبر على العلم ، وأما الدرس الثانى فاعلم ان محاسن الشعر ثلاثة : التطبيق والتجنيس والمقابلة ، على أن تعرف أن محاسن المعانى ثلاثة أيضا هى : الاستعارة والتشبيه والمثل .

وعاد فانقض عليه وشق على كتفه الثانى شقين دون أن يمس جلده ، فكاد سيفه يسقط من يده ، وانتظر أســـامة قليلا ثم استأنف المباراة قائلا :

ــ وأما الدرس الثالث فهو أنه لما كان الشعر على ما قلنـاه حتى انه ليسخى البخيل ويشجع الجبان ويفرج الهموم ويرضى الغضبان قالوا : الشعر أنفذ من السحر !

ووثب نحوه فشق رداءه من فوق ثديه الأيمن ثلاثة شقوق طويلة ، وهنا صرخت السيدة ملقية بنفسها بين ذراعى أســـامة وجسدها كله يرتعد ، فدفعها برفق وقال لأخيه ضاحكا :

ــ أرأيت يا أبا الحسن ؟

ثم اتجه الى فولك متظاهرا بالأسى :

ـ يبدو أيها البرونس أننا مضطرون الى تأجيل بقية الدرس ، لكن عليك أن تنصح الداما بألا تلقى بنفسها على الرجال !

ولم يشق على فولك بعد ذلك أن يغمد سيفه ، بل ربما حمد الله أن هيأت هذه المرأة فرصة النجاة له .. فامتطى جواده ولوح لرفاقه أن يتبعوه الى خارج البستان فى اتجاه الجبل ، واذ ذاك اندفع أبو الحسن الى أخيه المنطلق الوجه وقال له :

ـ والآن نكمل حديثنا فالى أين انتهينا به ؟

فقال أسامة :

ـ الى أن عماد الدين قرر امتلاك الشام ..

قال على :

ـ يبقى الأهم فحدس ما يكون ..

فقال أسامة :

ـ يدعونى أبو العساكر ؟

قال على :

ـ بل الأتابك عماد الدين ..

فقال أسامة :

ـ ماذا ؟

فأجاب :

ـ أخطرنا بأنه سينزل ضيفا علينا على أن يصحبك معه فى جيشه ..

وما كان له الا أن يتخلى عن مخاوفه ، وأصبح أمامه أن عماد الدين الذى يلهب خياله بغزواته الموفقة يفتح أمامه الطريق

الحقيقى للمجد . انه حتى تلك اللحظة قائد جيش صغير ، أو هكذا كان قبل أن ينسلخ من القلعة ، ومهما يكن كل ما بذله من ضروب الشجاعة رائعا فليس يقاس بما يحدث فى المعارك واسعة النطاق التى يصل فيها الجنود الى عشرات الآلاف .. والمسألة على أى حال أن أخرج من هذا السجن الذى ضربته على نفسى ، فاستوص ببيتى خيرا يا أخى ، وأطلب الىعمى أن يجهز عدة من فرسان شيزر للخروج معنا ، فاننى أكره أن يقال ان أبا العساكر لم يشترك فى تكوين الجيش الذى كسر الفرنج تحت راية عماد الدين .

ويقرر التاريخ بعد ذلك أن عماد الدين وجد فى أسامة ما وجده فى رجاله المقربين ، وخاض معه عدة معارك بعد أن أخضع حماة سنة ١١٣٠ تاركا شيزر لبنى منقـذ ، وفى سنة ١١٣١ خاف عمادالدين أن يسفر الصراع الذى نشب بين فولك الخامس ـ الذى أفلت من يده ليرث صهره بلدوين الثانى فى أورشليم ـ وتاج الملوك بورى بن طفتكين عن ضياع دمشق ، وطلب اليه أن يتوسط فى الصلح بينهما مستغلا تقدير زوجة الملكة لبنى منقذ غير ناسية الأيدى الكريمة التى مدوها الى أبيها فى أسره .

وفى العام نفسه مات السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فتنازع السلطنة أخواه مسعود وسلجوق شاه وابنه داود ، وانضم عماد الدين الى مسعود ، فوجد أسامة نفسه يحارب فى العام التالى قراجا الساقى فى تكريت الذى انضم الى سلجوق شاه ضد مسعود . وعلى الرغم من بلاء عماد الدين وأسامة فقد انتصر قراجا وانحاز عماد الدين الى تكريت حيث التقى أسامة لأول مرة بواحد من الأيوبيين الذى ارتبط بمصيره (١) .

---

(١) راجع أسامة بن منقذ لطاهر النعسانى ٣٠ والروضتين فى أخبـار الدولتين ١ : ٩٨ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٤٣ وذيل تاريخ دمشق ١٩٧ ،
R. Grosset: Hist. de Croisades; vol. II, P. 132.

وفى سنة ١١٣٦ كانت وقعة قنسرين التى حضرها أسامة مع عماد الدين وذكر أن قتلى الفرنج بلغوا ثلاثة آلاف جمعت رءوسهم فى حقل مقابل الحصن (١) وفى العام نفسه شهد أيضا المصاف على رفنية بين الافرنج وعماد الدين (٢) .

وفى سنة ١١٣٨ يسبق عماد الدين الى شيزر وقد حاصرها يوحنا الثانى امبراطور بيزنطة فى مائتى ألف مقاتل معهم مجانق هائلة ، وكان قد اجتاح الأثارب وكفر طاب وأفامية والمعرة .

وبين هذه المصافات والوقعات كان يخوض معارك أخرى جانبية عرض لها فى مذكراته عرضا يكشف عن أنه لم يعرف قط دعة ولا حاول هو أن يبحث عنها ، وكان ما كسبه شيئين : أولهما حب عماد الدين له حبا حفظ له استقلال شيزر ، وثانيهما اشباع هوايته فى الضرب والطعان .

---

(١) هذه الوقعة أول ما وجد فى الاعتبار ، مع ملاحظة أن فى مبتدئه خرما أشار اليه فيليب حتى محقق الكتاب .

(٢) رفنية : بفتح أوله وثانيه وكسر ثالثه مدينة من أعمال حمص ، ويقال لها أيضا رفنية تدمر بالقرب من حصن بعرين ، وللاستزادة عن الحصون التى لعبت دورا كبيرا فى حوادث هذه المرحلة من التاريخ راجع :

Camille Enlart: Les Monument Croisees.

R. Grousset: Croisades, II, P. 172.

(١١)

نهاية مرحلة

على الرغم من أن مؤيد الدولة أبا المظفر أسامة كان من أكثر المقربين الى عماد الدين طوال تسعة أعوام كاملة ، فانه لم يكن قط بالرجل الثانى ولا الثالث بعد ذلك الأتابك الأزرق العينين فى الموصل ، بل لم يكن على الاطلاق أحد الذين يؤثرون فى مجرى الأحداث . وآية ذلك أنه لم يتفرد بقيادة جيش قط . بل ان صلاح الدين الفسيانى عندما عين أميرا على كفر طاب وجعله أميرا لجيوشه لم يترك له فرصة العمل وحده ، فكان يخرج معه للغزو جاعلا لنفسه الكلمة الأولى والأخيرة .

ولقد أقطع اقطاعا فى الموصل ، ومع ذلك ظل على اتصال بشيزر ، وكان اذا قذفت به النوى فزار خرتبرت والأثارب أو تردد على حلب ودمشق يعرج على شيزر ، فتفقد مزرعته وأحصى غلاتها وأقرأ أهله السلام غير مطيل ولا ملح .

وربما كان من أبرز الأسباب التى جعلته يميل الى ملازمة الفسيانى على ما لرفقته من علات هو أن يظل قريبا من مسقط رأسه ، بعد أن صرع بوهيموند الثانى سنة ١١٣٠ وولى أنطاكيه ريمون دى بواتييه فاتجه (١) بمطامعه الى شيزر على عادة كل أمير افرنجى جديد تخدعه أمانيه فى التوسع .

والطريف أن عماد الدين حذر أسامة من الفسيانى قائلا له

(١) R. Grousset : Croisades. II, P. 172.

انه واحد من أخطر ثلاثة فى الدولة لأنه ـ على ما يذكر فى مذكراته ناقلا عن الأتابك ـ لا يخشاه ولا يخشى الله ، وأما الاثنان الآخران فهما : على بن كوجك الذى يخشى الله ولا يخشاه ، ونصير الدين سنقر وزيره الذى يخشاه ولا يخشى الله !

على أن أسامة الذى يستطيع أن يروض الوحوش ويقضى عليها لم يكن بالذى يعييه أمر الفسيانى ، فخرج معه الى معارك موفقة فى حمص سنة ١١٣٢ بعد عودته من دمشق ، وفى كوهستان وحصن الكرخينى بجوار اربل سنة ١١٣٣ ، وفى شيزر نفسها ضد الباطنية سنة ١١٣٥ ثم ضد يوحنا الثانى يؤازره جوسلان وريمون دى بواتييه سنة ١١٣٨ . وعندما كتب عنه فى مذكراته أشاد به على رغم قسوته وعنفه ، ولم يعلق على ما تردى فيه من أخطاء ، واذ ينتهى الى أنه نهب يوما ملابس خيطت لفقراء مكة يصرح بأنه يكتفى بأن يتمثل قوله :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم
فينا يشيب ذكره المولودا

ويحكى أنه اعترض عليه يوما لأنه قصد طبرية فى أحد أعياد الافرنج للتفرج على فرسانهم وهم يلعبون بالرماح ، وألح الى كثرة خروجه للصيد ، فلم يجد الا أن ينشد له :

ولله منى جانب لا أضيعه
وللهو منى والبطالة جانب

ولقد رآه يمتطى صهوة فرسه فيأتى بالأعاجيب ، ويكلم الفرنج بلغاتهم المتعددة فلا يملك الا أن يزداد به اعجابا وله تقديرا . لكنه لما قص عليه أن أباه ماكاد يسمع باستعداد الروم لغزو بلده حتى رفع مصحفا كان ينسخه وقال « اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجىء الروم فاقتضنى اليك » لم يزد على أن نهنه :

ـ لم يعد الا أن تفرغ لشئونك !

كان ذلك فى سنة ١١٣٧ ، وفى العام التالى حوصرت شيزر ونصبت عليها مجانيق هائلة ترمى الثقل وتبلغ حجرها مالا تبلغه النشابة ، ويزن الحجر عشرين رطلا وخمسة وعشرين . ولما كان للأعداء الى جانب ذلك مائة ألف فارس ومائة ألف راجل ، فقد وجد أبو العساكر أن من الضرورى الاستنجاد بعماد الدين بخاصة بعد سقوط حصن الجسر .

ومن المؤكد أن الفسيانى لم يعط أسامة ـ الذى أصبح من عمال عماد الدين ـ فرصته للعمل الحر ، وعقب احدى المعارك التى كان يشترك فيهـا ابنه شهاب الدين أحمد الذى اضطر للارتداد قال لأسامة :

ـ أما ترى ما فعله هذا الولد المثكل ؟

قلت :

ـ وأى شىء فعل ؟

قال :

ـ أنفذ الى يقول « أبصر من يتولى بلدك »

قلت :

ـ وأى شىء عملت ؟

قال :

ـ نفذت الى أتابك أقول « تسلم موضعك »

قلت :

ـ بئس مافعلت ، أما يقول لك أتابك « لما كانت لحما أكلهـا ولما صارت عظما رماها على »

قال :

ـ فأى شىء أعمل ؟

قلت :

ـ أنا أجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان أخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا وأنت معذور .

قـال :

ـ ماقال لى هذا القول أحد غيرك .

وتوهمت أنه يفعـــل ذلك ، فحفلت الغنم والدقيق الـكثير والسمن وما يحتاج اليه المحاصر ، وبينما أنا فى دارى المغرب اذا رسوله جاءنى وقال :

ـ يقول لك صلاح الدين « نحن بعد غد سائرون الى الموصل فاعمل شغلك للمسير »

فورد على قلبى من هذا هم عظيم وقلت أترك أولادى واخوتى وأهلى فى الحصار وأسير الى الموصل ، وأصبحت اليه وهــو فى الخيام فاستأذنته فى الرواح الى شيزر لأحضر نفقة ومالا نحتاج اليه فى الطريق ، فأذن وقال :

ـ لا تبطىء !

فركبت ومضيت الى شيزر ، فبدا منه ما أوحش قلبى ، فقد أنفذ الى دارى فرفع كل مافيها من الخيام والسلاح والرحل ، وقبض على أمر أحبتى وتتبع أصحابى ، فكانت نكبة كبيرة رائعة .

وعلى هذا النحو يرسم أســامة الخطوط العريضة فى تلك الكارثة التى وضعت حدا لعلاقاته المعيشية فى شيزر ، ومن جانب آخر نرى عماد الدين يعجم عود الروم والافرنج فلا يجد الا الوقيعة بينهم وسيلة لرفع الحصار . وكانت كل الظروف مهيأة لهــذا الأمر ، بعد أن اضطر ريمون دى بواتييه الى أن يقسم ليوحنــا الثانى قسم الولاء والطاعة وبذلك ينسلخ عن الافرنج ، وبعد أن

تعلل جوسلان بشتى العلل ليعود الى الرها فكشف هذا ليوحنا أن الفرنج غير جادين فى حربهم . وما لبث الامبراطور أن وافق على مبدأ الصلح ، وأهدى اليه سلطان عددا موفورا من الخيول العربية ، وما كاد يصل الى انطاكية بعد حصار لشيزر استمر ثلاثة أسابيع ـ قذفت فيها بالمجانق ـ حتى واجه ثورة عنيفة دبرها له جوسلان !

وينفق أسامة بعض عام ١١٣٨ فى الموصل حزينا مفكرا ، يتوجع حينا فيعبر عن توجعه بالشعر ، ويعكف حينا آخر على القراءة وارتياد منازه البلد وأرباضه فى صحبة أبى الحسن على ابن أبى الآمال والأمير السيد شهاب الدين أبى عبد الله العلوى وشمس الدين أبى المجد الحسينى (١) ، وكثيرا ما عمد الى حيطان داره فنسخ بالألوان عليها بعض شعره :

دار سكنت بها كرها وما سكنت
روحى الى شجن فيها ولا سكن
والقبر استر لى منها وأجمل بى
ان صدنى الدهر عن عودى الى وطنى

فما كان لرجل القوة الذى يهيمن على الحياة المادية بزنده وسيفه أن يهيمن على لواعجه ، وانما يروح يختزن على الدوام وخلال ترحاله وتجواله مجموعة من المشاعر لا تزال تتضخم حتى يأتى الوقت الذى ينبغى أو يكون من الطبيعى أن تنفجر فيه . واذ ينجح فى التخلص منها بالخروج الى الصيد مع شجاع الدولة وبعض غلمانه وأصدقائه ، ترجو زوجه وأمه بأن يربع على نفسه بخاصة أنه اكتهل ، الا أنه يؤكد لهما أنه بخير مادام يتحرك والمهالك على أية حال لا تقصف عمرا .

---

(١) نقل عنهم فيما ألف من كتب باستثناء الاعتبار ـ راجع على سبيل المثال كتاب العصا ٢٠٨ ، ٢١٠ ط . القاهرة سنة ١٩٥١ نوادر المخطوطات ٢٩ .

فهذا فارس بن زمام الذى طعنه ابن عمه يحيى وسمع هو قعقعة رمحه فيه وهو يسقط ، يكتب الله له النجاة .

وهذا أيضا حمدات العجوز الذى كان صديق أبيه — رحمه الله — يحارب حتى يعشى بصره وهو شيخ كبير ، فى حين يموت مياح الكردى وهو فى شرخ الشباب ، بل يموت وهو لابس فوق درعه قميص العرس الأحمر فقلنا « يا قرب مأتمة من عرس » .

ثم هذا بدى القشيرى خاض معركة المجانق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وهو عار ما عليه الا ثوبان ، فطعن فى صدره حتى خرج الرمح من جانبه ، ولما رجع كنا نظن أنه يموت ولكنه برىء وعاش.

وابن الأحمر الكنانى من ينساه ؟ ألم يسقط بين أنياب الأسود ، فما زاد على أن راح يلعق دماءه حتى تسلق الشجرة ؟

وفى هجوم الباطنية على شيزر سنة ١١٣٥ أبلى الرئيس جواد بلاء طيبا دلنا على أن أحد أصحابنا وهو مقتول فوق شىء ، فلما رفعناه وجدنا من تحته رجلا من الحشاشين قد تسجى ورفع المقتول على صدره . فقتلناه ووضعنا صاحبنا على بلاط الجامع فتحرك ، فخيطت جروحه وعاش .

ولشد ما كان يندفع الواحد منا الى أطراف الرماح فلا تنال منه ، وكثيرا ما جرحنا حتى ظننا التلف فى تلك الجروح ، ولكن هيهات !

وأن تعجب فعجب وقد نغدو على شفا هاوية أن لا نسقط ، بينما يموت فى فراشه الذى حذر الموت وتحصن ضده !

وفى أحد الأيام يعود من قصر أتابك الى داره ، فيجد رسولا من أخيه أبى الحسن على ومعه كتاب ، وما يفضه حتى يند عن صدره آهة طويلة ويقرأ :

ألا هـــل لمحـــزون تذكر الفـــه
فحن وأبدى وجـــده من يعينـــه

وعيشـــــا مضى بالرغم اذ نحن جيرة
ترف على روض الوصـــال غصـــونه

لدى منزل كـــان السرور قرينـــكم
به فتولى اذ تولى قرينـــــه

فلو أعشبت من فيض دمعى محوله
لمـــا رضيت عن دمع عينى جفـــونه

هنالك حـــزم أمره على السفر ، واستأذن عمـــاد الدين فسمح له .

فشد الرحال من جديد الى شيزر وقد تناهبه الخوف والقلق والشك والحنين الى اللهو بالقنص وصراع الأسود ، لكن احساسا واحدا بالتحدى لم يخامره .

بل على العكس عقد العزم على أن يكون المسالم الموادع ، وكتب شعرا تصور أنه يقصد به عمه :

قالوا نهتـــه الأربعون عن الصبا
وأخو المشيب يجور ثمت يهتدى

كم جار فى ليل الشـــباب فدله
صبح المشيب على الطريق الأقصد

واذا عددت سنى ثم نقصـــــتها
زمن الهموم فتلك ساعة مولدى

ولا شك أنه كان مبالغا ، فهو أولا لم يشب حتى هذه السن . وظل محتفظا بنضـــارة غير مألوفة لمن هم فى عمره ، ومن ناحية ثانية لم يعان ما يدخل فى باب الهموم سوى الاحساس بالغربة ،

وهذا يستعان عليه عادة اما بالتعرف الى اخوان جدد واما بالقراءة ونحوها !

وما كاد يحط رحاله وهو يحلم بأيام صفو بين أهله وذويه ، حتى تتردد عليه رسل أتابك فى طلبه الى صـــاحب دمشـــق ، فيقصدها فى أهله ومواليه وقلبه عامر بالأمل . وكأنه كان يحس أن تلك المدينة التى زارها قبل ــ وهى جنة المشرق ومطلع حسنه المشرق ــ تستطيع أن تكون له فى ظل البوريين أصحـــابها أطيب منزل وأجمل مرتع .

الباب الثانى

مواطن بلا وطن

(١)
صراع فى دمشق

قدم أسامة دمشق فى الأيام الأخيرة من عام ١١٣٨ ، وكانت مهمته فيها غير واضحة تماما . فمن ناحية كان يبدو أن عليه الاتصال بفولك دانجو ملك أورشليم للعمل على تحسين علاقاته بصاحب دمشق ، ومن ناحية أخرى يعمل على أن يروج لفكرة الانضواء تحت راية عز الدين الذى أطلق عليه « قاهر الكفرة والمتمردين » رغم أنه كان حتى تلك اللحظة لا يوسع رقعة مملكته الا على حساب الأمراء المسلمين .

ولقد كان على دمشق يوم جاءها أسامة الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ، وكان أبوه قد اغتاله الحشاشية سنة ١١٣١ فتولى فى ظروف عصيبة أطمعت فيه الجميع ، حتى ان ابراهيم ابن طرغت صاحب بانياس من قبل عماد الدين هدد بغزوه . وقد قتل شهاب الدين — وكان أكرم وفادة أسامة وأعانه على السكنى فى الغوطة — فى شوال من عام ٥٣٣/١١٣٩ فخلفه أخوه جمال الدين ابن تاج الملوك بورى ثم مجير الدين عصب الدولة أبو سعيد أبق فى أحلك ساعات التاريخ . فقد كانت جيوش عماد الدين قد زحفت من حلب وحطت عند بعلبك ، ثم ضربتها بالمجانق حتى استسلمت له فى يناير من سنة ١١٤٠ ليبدأ حصار دمشق للأخذ بثأر شهاب الدين ، لأن أمه كانت احدى زوجات عماد الدين (١) .

---

(١) راجع تاريخ أبى الفداء ٣ : ٣٦٤ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٩٣ والروضتين ١ : ٧٠ وما بعدها .

وفى اشتجار الأحـداث يتمكن معين الدين أنر الوزير من أن يستميل اليه أسامة كاشفا له عن حقيقة توسعات أتابك الموصل ، فيعود اليه الشك فى نيات هذا الأتابك قاهر الكفرة ، ويأخذ على عاتقه أن يفسد مخططاته . ولقد وقع والحق يقال فى أزمة نفسية طاحنة ، وراح يسأل أتراه الحق أنه جاء الى دمشق ليكون مجرد مخلب قط ؟ ولماذا لا يبدأ عماد الدين بضرب أنطاكية ان كان يعييه الأمر فى منطقة الرها وبلاد الأرمن ؟

الآن تأكد أن معين الدين أنر ينظر الى المشـكلة من الزاوية نفسها التى يتبناها سلطان فى شيزر ، فان المحافظة على الاستقلال ضد أى تيار توسعى يلتئم والمنطق أو يتمشى وطبائع الأشياء . وبدل أن تدخل السرور على القلوب شـعارات قاهر الكفـرة والمتمردين نكأت جروح الخوف فى الصدور ، اذ شعر الجميع بعزة أنفسهم المهيضة أمام طامع مستبد .

وبدأت عمليات البحث عن الحلول فانتهى الاثنان ـ أسامة وأنر ـ الى أن الضرورة تقتضى الاتصـال بفولك فى بيت المقدس لعقد محالفة ثنائية ترمى الى مناهضة أتابك الموصل (١) . حقا راحا يقيمان الوزن لما قد ينهض أمامهما من اعتراضات واحتجاجات ـ وقد بصرهما الى ذلك أحد بنى الصوفى العرب وهو أبو الفوارس المسيب بن على بن الحسين ـ الا أنهما شاءا أن يولياها الاغفـال ولو الى حين .

ومن ثم وصل أسامة الى بيت المقدس ومعه رصيد هائل من التأييد والتقدير ، فاستقبل خير استقبال ، والملك يذكره بالجميل

---

(١) قابل هذا بما رواه مؤرخان عاصرا تلك الأحـداث وكتبا عنها ، أولهما ابن القـلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ٣٠٨ ، ٣٠٩ وثانيهما وليم الصـورى

William of Tyre: Hist., II, PP, 76, 77, 105, 106, 145, 148.

الذى أسداه بنو منقذ لحميه بلدوين الثانى . وراح الفرسان الداوية يرحبون به على أساس أنه فارس العصر المثالى ، ووجد من الجميع الثقة فى حسن مسعاه عندما ألمح اليهم أنه قادم لمواجهة خطر يتهدد الفرنج والمسلمين جميعا .

غير أن فولك طلب أن يجلس الى صاحب دمشق نفسه ، فأفهمه أسامة أنه لا حول ولا قوة له ، وأما أنر فهو يتربص لعماد الدين فى دمشق ولا يستطيع لذلك أن يبرحها ساعة واحدة.

واذن فلابد من عقد الاتفاق بينهما . واذا كان حموه قد وثق بعمه أبى العساكر سلطان أمس فتم له ما أراد ، فلا عليه الا أن يثق هو فيه اليوم فيبرم العهد وتكون له صفة التقديس . لكن فولك عاد فطلب الضمان ، وصرح بأنه اذا كان لابد من الوصول الى اتفاق ناجح فينبغى أن تمنح له بانياس . بمعنى أنه اذا كان عليه أن يعينهم فى طرد عماد الدين ، فان عليهم فى المقابل أن يعينوه على طرد ابراهيم بن طرغت عامل أتابك الموصل .

ورجع أسامة الى أنر بهذه الفكرة فرغب فيها ، مادامت تستهدف الاطاحة بأحد عمال عماد الدين الخطرين على أمن دمشق ، وأعطاه كل الحق فى وضع صيغة المحالفة النهائية . فلم يرجع اليه الا والاتفاق معقود على أن يعد فولك حملة من الفرنج ينفق عليها أنر بالاضافة الى عشرين ألف بزانت اتاوة تدفع له شهريا ، وفى المقابل يعاون الدمشقيون الفرنج فى ضم بانياس اليهم .

وخرجت الحملة الى دمشق فرحب بها أنر ، وهيأ لها فرص الاتصال بعساكره الذين كان من بينهم أسامة نفسه . وسرعان ما فك عماد الدين حصاره وارتحل الى بلده فى رمضان من عام ٥٣٤ / ابريل سنة ١١٤٠ بينما انتزعت بانياس من ابراهيم ابن طرغت .

ولا جدال فى أن أسامة أراح الدمشقيين ، فأحبوه وسعوا الى مجالسته فى داره مقرين بفضله . كذلك نفع الفرنج ؛ فكانوا يدعونه الى حفولهم وأعيادهم ، بل ان بعض فرسانهم آخاه حتى ليقول فى مذكراته « كان فى عسكر الملك فولك بن فولك فارس محتشم افرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود فأنس بى وصار ملازمى يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه فى البحر الى بلاده ، قال لى : يا أخى أنا سائر الى بلادى وأريدك تنفذ معى ابنك ـ وكان ابنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة ـ يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، فاذا رجع كان مثل رجل عاقل » .

ويوم طغى حاكم بانياس الجديد فأخذ بعض قطعان غنم من الشعراء ذهب هو الى فولك دانجو وقال :

ـ هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها ، وردها علينا بعد أن أتلفها .

فقال الملك لستة من الفرسان أو سبعة :

ـ قوموا أعملوا له حكما

فخرجوا وتشاوروا ، فقالوا :

ـ قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم فتوسل الى حتى أخذت أربعمائة دينار ، لأن هذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الافرنج على تغييره ، ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم !

وكانت لديه عادة قديمة ، هى الخروج فى الأسواق لشراء أسرى الافرنج من المسلمين ـ بدأها منذ عام ۱۱۳۱ ـ فرأى أن من الخير العودة اليها ، لأن فى اطلاق قيد مسلم دعما لقوى اخوانه وبنى جلدته ، بخاصة أنه كان يرى أن السلام مهدد دائما ، على

الأقل فى الشمال حيث راح يوحنـا امبراطور بيزنطة يبحث عن امارة لابنه عمانوئيل ، وكان هذا بدوره ـ وهو فارس من طراز نادر ـ شديد الطموح وذا مطامع لا تنتهى .

ومن ناحية أخرى كان معين الدين أنر لا يخفى وساوسه ، وعلى الرغم من أن أسامة جمعه بفولك فى عكا فقد ظل على ايمان بأن من الخير ملازمة الثكنات والأخذ بأساء النظام العسكرى ، لأن من الصعب على مسلم أن يستل من صدره كراهيته لمغتصب أرضه وأصعب من ذلك على الافرنجى أن يتصور أن الصراع قد أوفى على الغاية (١) .

---

(١) لمعرفة مدى خطر هذا الامبراطور والدور الذى لعبه مع الأفرنج فى حوادث الاحتلال يقرأ :

V. Cinnamus: Hist, Vol, 1 PP. 124, 125, 190, 291, Vol. 11, 4 - 10.

Q. Grousset: Croisades, 11, PP. 172, 173,

(٢)

ضد الاتابك أبدا

فى ابان ذلك كانت أمور أخرى تجرى وقدر لها أن تقرب أسامة من معين الدين أنر ، فبعد أن دكت بعلبك وولاها عماد الدين الى نجم الدين أيوب راح يستقبل الأمراء من مختلف الدول الاسلامية ، بعضهم يظهر له الولاء ، وبعض آخر يستمده العون . وكان من الذين أرادوا اللجوء اليه وزير الحافظ الفاطمى الأفضل رضوان بن الولخشى ، وقد نزل هاربا بصفة مؤقتة عند أمين الدولة كمشتكين صاحب صلخد ـ صرخد ـ ليتاح له أن يلقاه ، ولما انتهى الخبر الى دمشق قال أنر لأسامة :

ـ هذا الرجل ان انضاف الى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير .

فقال أسامة :

ـ فأى شىء ترى ؟

قال :

ـ تسير اليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتابك ويكون وصوله الى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله فى هذا رأيك .

فسرت اليه فى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحد وتحدثت معهما فقال لى الأفضل رضوان :

ـ فرط الأمر منى ورهنت قولى عند هذا السلطان بوصولى اليه ولزمنى الوفاء بقولى .

قلت :

ـ أقدمك الله على خير ، وأنا أعود الى صاحبى فانه مايستغنى عنى بعد أن أخرج اليك بما فى نفسى .

قال الأفضل :

ـ قل !

قلت :

ـ اذا وصلت الى أتابك ، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك الى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟

قـال :

ـ لا !

قلت :

ـ فاذا هو نزل على دمشـق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك الى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوى عسكره ؟

قـال :

ـ لا !

قلت :

ـ ذلك الوقت يقول لك « نسير الى حلب نجدد آلة سفرنا » فاذا وصلتم الى حلب قال « نمضى الى الفرات نجمـع

التركمان » فاذا نزلتم على الفرات قال « ان لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » فاذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرف وقال « هذا عزيز مصر فى خدمتى » وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشـــام فلا تقدر وتتذكر حينئذ كلامى وتقول « نصحنى ماقبلت » .

قـال :

ـ ماذا أعمل وأنت تريد أن ترجع ؟

قلت :

ـ ان كان فى مقامى مصلحة أقمت !

وقد انتهى الاجتماع بأن يذهب الأفضـل الى دمشق على أن يتقاضى ثلاثين ألف دينار نصفها اقطاع ، ويكون له دار العقيقى ، وسجل ذلك بنفسه ـ وكان جيـــد الخط ـ وأبدى استعداده للسير معه ، ولكن أسامة قال له :

ـ بل أنا أســير ومعى الحمـام من ها هنا ، فاذا وصلت وأخليت الدار ورتبت الأمر طيرت اليك الحمام ، وسرت أنا فى الوقت ألقاك فى نصف الطريق وأدخل بين يديك .

وحتى هنا نجح أسامة ، وقد عاد الى دمشـــق وهو يغبط نفسه مدفوعا بالاعتقاد أنه فوت على عماد الدين فرصة هائلة ، ومسوقا برغبة صادقة فى ارضاء معين الدين . غير أن ما وقع بعد ذلك لم يكن فى الحسبان ، فمن جانب بلغه أن عماد الدين تسخط عليه لما علم بدوره فى عدول الولخشى عن الوصول اليه ، ومن جانب آخر أغرى هذا بالعودة الى مصر ـ دون العروج على دمشق ـ وقد أمده كمشتكين بجيش لضرب الخليفة الفاطمى ، لكن هــذا تمكن منه .

وكان من الممكن ــ مع ذلك ــ أن يمر هــــذا الحــادث دون مضاعفات لولا أن قال محمود المسترشدى الكاتب فى مجلس سمر حضره طمان الياروقى وكان صديقا حميما لأنر :

ــ بلغنى أن العامة تقول لماذا يحتاج مولانا معين الدين الى أن يسخط الأتابك بمؤيد الدولة ؟

فرفع طمان الياروقى رأســه عن رقعــة الشطرنج وقال لأسامة كالضاحك :

ــ الحق أننى أحس أنه يرمينا بك .

فقال أسامة :

ــ ألى أنا يقال هذا الكلام ؟

وظل معين الدين صامتا ، فقال طمان :

ــ أنت سيدنا يا أبا المظفر ولكن ...

قال معين الدين مقاطعا بحدة :

ــ لا لكن .. والله لولاه لما بقى شيء على حاله !

قال طمان :

ــ لكل دهر رجال على أى حال

فقال معين الدين ؟

ــ ماذا تعنى ؟

فأجاب

ــ انه يريدها حربا دائمة .

فصرخ أسامة قائلا :

ــ أفتدعو الى ترك السلاح يا رجل ؟

وكان الســـؤال مباغتا فوجم طمان ، بينما أطرق أنر ، فانبرى أسامة مستطردا :

ـ أرجـو ألا تجعلنى أريد نفسى على ما أكرهه ولا تقل ان دمشق ليست بحاجة الى جيش مستعد ، وانه اذا توافر لأى امرىء الشرف وثبات الجنان ورباطة الجأش والعزم وعقد كل أولئك بحب الأمير كان خير جندى فى خير جيش يقابل الأتابك وغير الأتابك .

قال معين الدين :

ـ هو على حق ..
فغمغم طمان وهو يحرك بيدقا على الرقعة :

ـ هو دائما على حق .

وكانت تلك آخر عبارة نطق بها فى مجلسـه هـذا ، وأما أسامة فقد تطلع الى محمود الكاتب وقال :

ـ أرجو أن تنقل لمولانا الأمير دائما ما يقوله العامة ، لكن يجب أن تذكر قول المثل ان حالت القدس فسهمى صائب .
ولم يدر أحد سوى طمان الياروقى ما يرمى اليه ، فنهض معتذرا بأنه يريد أن يحتجم ، فى حين أقبل أسامة عمل أنر وهو يقول :

ـ أحب أيها الأمير أن لا تنحاز لى ، فان رأيتنى أخطـأت راجعتنى فما أريد أن ألزمك بما أفعل .. ومع ذلك فهل تأذن لى أن أكون معك صريحا ؟

قال أنر :

ـ وهل كذبت على قبل يا أبا المظفر ؟

فقال أسامة :

ـ لا والله ، ولكنى أحس أنى أثقل على ناس برعايتك لأسبابى واشتمالك على .

فنهض معين الدين واقفا وهو يقول :

ـ دع ما يقال يا أبا المظفر فلن تفارقنى ، والذى بيننا من المودة فوق ما يقال .

(٣)

الجاحدون

المدة التى قضـاها أسامة فى دمشق ــ وقد انتهت سنـة ٥٣٩/١١٤٤ ــ اتسمت بالهدوء على وجه الاجمال ، وبلغ من تغير ظروفه أنه كان يطيل جلسات العلم والمذاكرة . وباستثناء رحلاته مع معين الدين الى طبرية وعكا وبانياس ومرات معدودات لقنص السباع ، فانه لزم الفوطة حيث أخذ يتردد على داره كبار القوم ورجالات العصر . ومن هؤلاء رئيس كتاب دمشق أبو يعلى حمزة ابن القلانسى التميمى ، والرحالة المؤرخ أبو القاسم على بن الحسن ابن عساكر والمحدث صاحب الأنســاب عبد الكريم بن محمـد السمعانى ، والشاعر الفقيه عمــارة اليمنى ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولى والعالم الفقيه الفندلاوى .

كما اعتاد أن يزوره المسيب بن على ويبادله هو الزيارة ، ومرة واحدة انتجع بعلبك فى ضيافة ابن عمه يحيى بن سلطان وزار معه نجم الدين أيوب وقد سمع بشهرته كفارس ومحارب ، ومثلها ألم بشيزر حيث كانت تساجل ريمون دى بواتييه فى أرباض بندر قنين على الرغم من انه كان يعلم تماما أن عمانوئيل الأول امبراطور بيزنطة ــ وقد خلف أباه سنة ١١٤٣ ــ أكثر خطرا عليه من اغارات هذه الامارة العربية الصغيرة .

ومع ذلك فاننا نشعر بأن علينا ألا نكتفى بهذا دون ايضاحات خاصة ، وذلك لأننا نجده يشد رحاله فجـأة الى مصر ، بل هو

فعل ذلك ـ فيما يبدو من مذكراته ـ مضطرا ، وان ألمح الى أن الناس كانت تخوض فيه كما خاضت فى معين الدين نفسه ، ومن أجل ذلك اضطر الى أن يقول له بشعره :

ألم تعلم بأنى لانتمائى اليك رمى سوادى كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماشي لقسر دون اعذار الحسام
ولكن خفت من نار الأعادى عليك فكنت اطفاء الضرام

وفى جلسة جمعته بابن القلانسى والمسيب تذاكروا أخبار بنى منقذ فقال لهما انهم ـ وهو فيهم ـ تعودوا أن يقابلوا بالجحود ، وليس يدرى أهى لعنة أم فى عروقهم ما ينفر القوم منهم . وضرب لهما مثلا بنفسه حين حاول بالاتفاق مع أنر على أن يجذبا اليهما الأفضل رضوان ، وكانت النتيجة أن قيل أولا عنه انه منافق ، ثم لما زاره الأمير سيف الدين على بن السلار ـ والى اقليم البحيرة والاسكندرية ـ قيل انه فاطمى .

وهو لا ينكر أن ابن السلار حببه فى مصر ، وأكد له أن خليفتها الحافظ يتمنى على طول الشقة لقاءه . غير أنه اعتذر بضرورة أن يبقى قريبا من ميدان المعركة . ولقد رفض ابن القلانسى الادعاء من أساسه ، فى حين تحفظ المسيب شيئا ، وذكر أن ما يعيب أسامة ـ على علمه وفضله وشجاعته ـ قصور نظره ، وبعبارة موجزة :

ـ أبو المظفر لا يعرف مواطىء قدميه !

وبعد أسبوعين أو ثلاثة تقريبا من هذا الحديث همس محمود الكاتب فى أذنه أن غلمان القصر وأساتيذه يرجفون بتدبير قيل انه أعده ضد مجير الدين ، والا ففيم مجىء ابن السلار اليه ؟ وقد أثار ذلك اهتمامه وخوفه ، لأنه فضلا عن تعارضه مع مبادئه يظهره بمظهر الكنود ـ فكأنه كان زورا كل شكره على ما أقطعه اياه وملكه .

وقد كان جائزا أن يظل الموقف معلقا على ذلك النحو لولا أن تعرض له طمان يوما وهو فى دار أنر ، وكان أسامة قد فرغ من صلاة المغرب فابتدره قائلا :

ــ غفر الله لك يا مؤيد الدولة .

فقال أسامة :

ــ تقول الناس فى هذه المقامة حرما .

فعاد يقول :

ــ ولكنى أقولها الساعة عساها تشفع لك .

قال أسامة والأمير أنر صامت كعادته ، ويحرك مسبحته بين أصابعه فى اضطراب بين :

ــ كأنى أتيت أمرا ادا ؟

فقال طمان :

ــ بل مرقت والله سبحانه يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

فتساءل أسامة :

ــ وهل شققت أنا عصا الطاعة ؟

فتدخل معين الدين أنر قائلا :

ــ كنت أمس أقول يا أبا المظفر أنا كفيلك واليوم لا أستطيع ! وبهت أسامة ، لكنه قال بثبات :

ــ ولماذا أيها الأمير ؟

فأجاب أنر :

ـ جاءنى بعضهم بكلام عنك فقرأت عليهم قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »

فقال أسامة :

ـ وهل لم يتبين الأمير ؟

فاندفع طمان يقول :

ـ فى صدر مولانا حرج فدعه يا رجل !

وخرج توا قاصدا دار المسيب ، فما استطاع أن يبين الا بعد أن أنشد :

انظــــر بعينيك هل ترى	أحـــدا يدوم على الموده
فترى أخـلاء الصـــــفا	ء عدى اذا نابتك شــــده

فقال للمسيب متماكرا :

ـ وما الشدة يا مؤيد الدولة ؟

فأجاب :

ـ يقولون انى أدبر لابن السلار ضد مجير الدين .

فتساءل :

ـ أكذلك ؟

فقال :

ـ أنت تعلم دخيلتى ، ولكن هذا الياروقى يغمز بعد همس الحاجب محمود الكاتب .

فقال المسيب :

ـ بقدر ما تظهر على القرن فى الطعان تغيب عنك أمور .. يا للعجب !

فقال أسامة :

ـ وما غاب عنى ؟

فأجاب المسيب قائلا :

ـ مجالستك لى ومجالسة طمان الياروقى لمعين الدين .

فتساءل أسامة :

ـ وما العلاقة أيها الشيخ الفاضل ؟

فقال المسيب موضحا :

ـ اما مجالستك لى فتثير معين الدين ، وأما مجالسة طمان الياروقى له فتؤذن باستبداله بك عنده .

فتمتم أسامة :

ـ وهكذا تذاع قالة السوء عنى ؟

فأردف المسيب :

ـ ولن تدعك حتى تدع أنت هذه الأرض وما عليها .

وهنا قال أسامة بعد أن تفكر مليا :

ـ ما والله أدرى أين أنا ، ولكنهم قالوا ان اللئيم الجاهل لا يزال ناصحا حتى يرفع الى المنزلة التى ليس لها بأهل ، فاذا بلغها التمس ما فوقها بالغش والخيانة . وان اللئيم لا يخدم السلطان وينصح له الا عن فرق أو حاجة ، فاذا أمن وذهبت الحاجة عاد الى جوهره كذنب الكلب الذى يربط ليستقيم، فلا يزال مستقيما مادام مربوطا فاذا حل عاد الى أصله فانحنى .

قال المسيب :

ـ ومن اللئيم يا أبا المظفر ؟

فأجاب وهو ينهض :

ـ من لا يعلم أن السعاية نار وقبولها والعمل بها دناءة والثقة بأهلها غباوة :

يهون الخطب أن الدهر ذو غير
وأن أيامه بين الورى دول

وأن ما سر أو ما ســـاء منتقل
عنا ، والا فانا عنـــه ننتقـــل

حدث هذا ليلا ، وفى الصباح كبست داره بالشرط وصودر ما فيها . وكان القتل يقع فى أهل بيته لولا أن خف محمود الكاتب بعدة من أعوان أنر ، فامتنع بهم حتى تهيأت له الفرصة فخرج كالمطرود وقد أذهلته المفاجأة .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيرى الى مصر ، فضاع من حوائج دارى وسلاحى مالم أقدر على حمله ، وفرطت فى أملاكى ما كان نكبة أخرى .. كل ذلك والأمير معين الدين محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتى ، مقر بالعجز عن أمرى حتى انه أنفذ الى كاتبه الحاجب محمود المسترشدى قال « والله لو أن معى نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو أن معى ثلثهم لضربت بهم الثلثين وما فارقتك .. لكن الناس كلهم قد تمالئوا على ومالى بهم طاقة ، وحيث كنت فالذى بيننا من المودة على أحسن حاله » .

لكن انسانا واحدا فقط وقف الى جانبه فى محنته ، وخرج معه الى بصرى على رغم ضعف حيلته ، وأمده بالزاد الضرورى ، ولما أمن شرط مجير الدين ونهـــابة الاسماعيلية فى أرض فولك دانجو ، ودعه وداع المفارق الى الأبد لأنه كان اذ ذاك شيخا عشى بصره ..

أما هذا الانسان فقد كان الرئيس جواد ، رآه أسامة ذات يوم فى أحد دكاكين دمشق ، وكان يبيع الفلال قانعا بالنزر الذى تدره عليه أيام شحيحة قاسية ، وقد أخبره أنه شاهد اسحاق الحجام فى سوق النخاسة يقتله غلام له وهو يقول :

ـ ظننتنى أيها الكافر حمارا استأتن !

(٤)

هذه هى القاهرة

وصل أسامة الى القــــاهرة فى الخميس ثانى أيام جمادى الآخــرة من عام تسع وثلاثين وخمسمائة ــ ٣٠ من نوفمبر عام ١١٤٤ ــ وكان فى صحبته أمه وزوجته وابنه وأخوه نجم الدولة أبو عبد الله محمد ونفر من مواليه ، فأنزلهم الخليفــــة الحافظ لدين الله الفاطمى فى قصر الدار الســــلطانية التى بناها الوزير الأفضل بدر الجمالى قبل مصرعه .

وكان الأفضــــل رضوان بن الولخشى محبوسا فى دار بجانب ذلك القصر ، فبدا له أن يكلم الخليفة عنه فى أول لقاء يجمعه به . ولكن هذا تمكن من الهرب فى اليوم نفسه الى الجيزة ، وجمع أمره على القتال ، ثم أصبح بكرة الجمعة فى القاهرة وجند الخليفة من جيوشية وريحانية وفرحية واسكندرانية تحت قيادة صــــاحب الباب تاج الملوك قيماز ، فرأى أسامة أن يضع نفسه فى خــدمة مولاه الجديد ضد ابن الولخشى .

ويبدو أن جند مصر كانوا من الضعف ــ يومذاك ــ الى الحد الذى استسلموا فيه للوزير الثائر . وعبثا حاول أسامة أن يلحق بحامية القصر الذى ينزله الحافظ ، فقد وجد الأبواب كلهــــا مغلقة ، واضطر الى أن يرجع الى القصر الذى ينزل فيه والأنباء تتوالى بنزول ابن الولخشى فى الجامع الأقمر واجتماع الأمراء اليه بالطاعة والنفقة والطعام .

ولم تكن هناك أية فرصة يتدبر فيها أسـامة أمره أو ينعى سوء حاله ، لأن الحافظ جمع السودانية وأسكرهم ، ثم أطلقهم وراء الأفضل .. فاندفعوا الى الجامع الأقمر يتصايحون ، وهنا انفض الأمراء من حول الأفضل حتى اذا خرج من الجامع فى أثرهم لم يجد أحدا ولا حصانه ـ فقد سرقه الركابى ـ ورآه أحد غلمان الحافظ فقال له :

ـ أما تركب حصانى يا مولاى ؟

فأجاب :

ـ بلى !

فجاء نحوه يركض حتى اقترب ، ثم انحنى كأنه يميـل الى النزول .. وفى لحظة خاطفة ضربه بسيفه فوقع ، وأتى السودانية فأجهزوا عليه ، وتقاسم العامة لحمه يأكلونه ليفدوا مثله شجعانا. وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشـاميين جراح كثيرة ، فجاءنى أخوه وقال :

ـ أخى تالف وهو ما يفيق .

قلت :

ـ ارجع أفصده .

قـال :

ـ خرج منه عشرون رطل دم .

قلت :

ـ ارجع أفصـده ، فأنا أخبر منك بالجراح وليس له غير الفصاد .

فمضى وغاب ساعتين ، ثم عاد وهو مستبشر وقال :

ـ فصدته ، وقد أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس .

قلت :

ـ الحمـــد لله ، ولولا أنى جريت هـــذا فى عـــدة مرار ما وصفته لك !

هكذا كان استقبال القاهرة له ، وبقدر ما تخوف واستشعر القلق فقد فتحت حادثة صاحبه الجريح أمامه باب الأمل . ولئن كان قد خطر له فى أثناء المعركة أن يقصد الى ابن السلار ، فانما أراد أن يتفادى كارثة تلحق بأهله فتكون الثالثة بعـد ما كان من الفسيانى معـه فى حصار شيزر ثم ما جرى له من الدمشقيين بعد ذلك .

وبهدوء الحال وارضاء الجنـد زار أسامة بن مصال الوزير ليبلغه أن الخليفة أقطعه اقطاعا بكوم أشفين فى القليوبية ، ومنحه عدة من الخيول والجمال والبغال السروجية ومائة رأس بقر عدا الماشية . غير أنه طلب اليه ألا يبرح الى اقطاعه حتى يأذن له مولاه الخليفة ، وبذلك أتيحت له فرصة تفقد المدينة العظيمة التى بهرته باتساعها وكثرة عمارتها .

وقد لحظ على الفور أن حكومة الفاطميين لم تكن كحـكومة الموصل ولا كحكومة دمشق ، ففى ذينك البلدين تطغى التقـاليد العسكرية على ماعداها ، فى حين تبدو القاهرة مدنية تكثر فيهـا الدواوين المشحونة بالعمال .. فهناك ديوان الانشاء ، وديوان بيت المال ، وديوان الرواتب ، وديوان خزائن الكســوة والطراز وديوان الأحباس وديوان الجيوش التى كانت خليطا عجيبـا من المغاربة والبربر والسودان والترك والفز والديلم .. وكان على كل ديوان رئيس اسمه الصحاب يخضع للوزير مباشرة ، ويلى

الوزير فى الرتبة صاحب ديوان الانشاء ثم يعقبه صاحب القلم الدقيق الذى يخلو بالخليفة يدرس معه شيئا من القرآن وبعض سير الأنبياء كذلك يعلمه تجويد الخط .

وأما صاحب الباب الذى قاد الجيوش فى وجه الأفضل رضوان فهو من كبار الموظفين ، ويستوى معه فى المركز حامل مظلة الخليفة وصاحب الرسالة الذى يحمل كتب الخليفة الى الوزير وموظفى الدولة الكبار .. ويبقى بعد هذا قاضى القضاة ، يليه داعى الدعاة فالمحتسب ، والى الأخير ترجع كل الأمور فى الأسواق العامة والطرقات .

وفى أول مرة مشى فى زحام القاهرة تلاشى كل ما أعده من خطط قدر أن ينفذها أمراء الشام .. هذه هى المدينة التى تصلح أن تكون حاضرة العالم كله ، وهى التى تستطيع أن تواجه — برغم الأمشاج المتنافرة التى يتكون منها جيشها — كل تحديات الروم والفرنج .. انها القاهرة الضخمة العامرة التى تترامى وتمتد وتكثر فيها الجوامع والمدارس والمشافى وتسهر الليل كأنها لا تنام أبدا .

وانتهت أيامه الأولى — وكان قد قابل فيها الخليفة مرتين — الى الاقتناع بأن ما ينبغى عمله انما هو وضع كتاب فى « المنازل والديار » لقد رأى كثيرا من المدن ، وشاهد الصحارى والوديان والبحار والأنهار ، الا أن ما يمر أمام ناظريه فى هذه الأيام شىء مختلف ، ربما يميزه الاصرار والعزم والوقار والرسوخ وقد يتسم بالدوام والشفافية ، وان يرغم الجميع على التأمل فيه وطول التفكير .

لكنه ما مسك القلم حتى هاجت به الذكريات ، ورأى أن من الضرورى أن يكتب لهؤلاء الذين صانعوه شيئا . ان معين الدين كان من غير شك كريما معه ، فلا أقل من أن يخصه بكلمة ، فنادى

على غلامه شجاع الدولة وأملى عليه عدة سطور ثم أعفاه ، وسكن الى غرفته لا يدخل عليه أحد ، حتى اذا خرج الى أهله نادى على أخيه يدعو الى أن يسمع تلك القصيدة :

ولوا فلمـــا رجونا عدلهم ظلمـوا
فليتهم حـكموا فينـا بمـا علموا

ما مـر يوما بفكـرى ما يريبهم
ولا سعت بى الى ما ساءهم قدم

ولا أضـعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم فى صـدرى التهم

فليت شعرى بما استوجبت هجرهم
ملوا فصـدهم عن وصلى السـأم

حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت اذ غدروا واصلت اذ صرموا

حرمت ماكنت أرجـو من ودادهم
ما الرزق الا الذى يجرى به القسم

محاسـنى منـذ ملونى بأعينهم
قـذى وذكرى فى آذانهم صـمم

وبعد لو قيـل لى ماذا تحب وما
تختـار من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجـال الكرى من مقلتى ومن
قلبى محل المنى جاروا أو اجترموا

تبـدلوا بى ولا أبغى بهم بـدلا
حسبى بهم أنصفوا فى الحكم أم ظلموا

يا راكبـــا تقطع البيـــداء همته
والعيس تعجز عمـــا تدرك الهمم

بلغ أميرى معـــين الدين مألكـة
من نازح الـــدار ولكـن وده أمم

وقل له أنت خير الترك فضـــــلك
الحيـــاء والدين والاقدام والكرم

وأنت أعـدل من يشـكى اليه ولى
شكية أنت فيهـا الخصم والحكم

هل فى القضية يا من فضل دولته
وعـدل سـيرته بين الورى علم

تضيع واجب حقى بعد ما شهدت
به النصيحة والاخـلاص والخدم

وما ظننتـك تنسى حق معرفتى
« ان المعارف فى أهل النهى ذمم »

ولا اعتقـدت الذى بينى وبينك من
ود وان أجلب الأعـــداء ينصرم

لكن ثقـــاتك مازالوا بعتبهـم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعـوك بالبخس يبغون الغنى ولهم
لو أنهم عـدموك الويل والعـدم

والله ما نصـحوا لمـا استشرتهم
وكلهم ذو هـوى فى الرأى متهم

كم حرفوا من معـان فى سفارتهم
وكم سعوا بفســاد ضل سعيهم

وذهب بصوته فى هذا الشعر الحزين الى ما كان منه ، كيف يسلمه وقد كان يظن أنه فى حرم ؟ وهل طمان أولى منه بالوفاء ؟ وهبه أخطأ فلماذا لا يعفو ؟ أفيظن أن بطانته الجديدة تستطيع فى تجريبه لها أن تصل الى شأوه ؟ هل فيهم رجل واحد يغنى غناءه اذا ما جلى حد السيف أو حد القلم الحوادث ؟

ـ هيهات يا أبا المظفر ...

فمسح أسامة من عينيه دمعة محيرة ، فهنــاك أشياء كثيرة يضيق بها صدره ويعجز قلمه عن الابانة عنها . انه ليس عيبا ، وما كان الا القوال البليغ ، لكنها الأزمة الطاحنة التى يجتازها .. وبرغم الجهود التى بذلها ليقول كل شيء ، فقد بقيت أمور ، وانى يا أخى والله لن أعود الى هــذا الأمر أبدا ، وحسبى أن أتحسس أنباءه وأنا هاهنا ، فان كل ما نالنى من بؤسه نعم !

(٥)

النديم السياسى

كان للفواطم عادة ارسال عسكر كل ستة أشهر لحفظ عسقلان من الفرنج (١) ، وأراد أسامة فى النصف الأول من عام ١١٤٥ أن يذهب مع الحملة الا أنه اضطر الى ملازمة الخليفة حين جاءه خبر بأن عبد المؤمن زعيم الموحدين فى المغرب ضم اليه كل ما كان للفواطم به ، فكادالخليفة يجن ،والعجيب أنه فىذات الوقت نمى الىأسامةنبأ مصرع ابن عمه يحيى بن سلطان فى هجوم الفرنج على بعلبك ، فاستوحش واغتم ، وكانت شيزر تتعرض اذ ذاكلغارات ريمون دى بواتييه (٢)٠ فاجتمعت الأحزان على الرجلين ، وراحا يتعاوران الشكاية ٠ ثم اذا البريد يخبرهما أن عمانوئيل الأول بدأ الزحف على سوريا الشمالية واحتل أنطاكية نفسها ، فى الوقت الذى كانت تتناطح فيه قوى ملك غازى ومسعود فى شرقى آسيا الصغرى (٣) ٠ فتضاعفت الهموم ، حتى اذا عرضا لغلاء الأسعار ـ الى درجة أن رطل الزيت الطيب أصبح يباع بثلاثة دراهم واردب القمح بتسعين درهما ـ كان ثمة مجال لتذكر الآخرة ، والزهادة ، وزيارة أولياء الله ٠ وانتهى اجتماعها الأول بضرورة الغاءالأسمطة السلطانيةالتى كانت تمدأول النهارو آخره، ولكن الخليفة عدل عن هذا القرار ـ لأنه يتنافى مع رغبته فى البر ـ واستبدل به اسقاط عيد النوروز ٠ وفى الاجتماع الثالث رأى أن هذا

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٩ .

(٢) William of Tyre Vol. II P. 22

(٣) ابن الأثير ٩ : ١٢ وأبو الفداء ٣ : ١٨ و :

J. Cinnamus: Hist., Vol. II, P. 3.

العيد رمز للفاطمية على ما ترتكب فيه من المخازى التى يشغف بها الفاسقون والفاسقات ، لهذا يبقيه على أن يصوم لله كل خميس مدى حياته ٠

وأما أسامة فقد قرر فى اليوم الأول للاعراب عن حزنه أن يقتل بمن قتل مائة افرنجى بسيفه ، وفى اليوم الثانى أعلن أنه يستبدل بهم ـ مؤقتا ـ عشر سباع ، وفى اليوم الثالث قال انه يكون من الخير اعتزال الناس فى يوم صيام الخليفة ٠

وقبل أن تعود صائفة عسقلان كانا يستشيران قاضى القضاة فيما عاهدا الله عليه ، فأفتى بالزامهما به أو عتق أحد العبيد ٠ وهكذا وجد أسامة نفسه يطلق غلامه شجاع الدولة ، وأما الخليفة فأبى الا أن يطلق عشرة ٠٠ فكان ما ضاقا به تسرية عن غيرهما ، ورب ضارة نافعة ! واذ كان أسامة قد عود الخليفة على أن يسمعه أطرافا من الوقائع التى شهدها ، فقد ذكر له ـ بالمناسبة ـ واقعة جمعة النميرى الذى أرمدت عينه زمنا حتى ظن أنها لاحتقانها الشديد تلفت ، ولكن وقعة مع الافرنج أنقذته ٠

فقد حدث أن أغارت على شيزر خيل كفر طاب فى قلة ، ففزعنا اليهم طامعين فيهم وقد كمنوا لنا كمينا ، فاجتاز جمعة النميرى بواحد منهم ، فخطا اليه وضربه على رأسه وفوقه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم ، وبقيت مفتوحة مثل فم السمكة ، فلقيته ونحن فيما نحن فيه من الافرنج فقلت :

ـ يا أبا محمود ما تعصب جرحك ؟

قال :

ـ ما هذا وقت العصائب وشد الجراح ٠٠٠

وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد ، وفى عينه عروق حمر ٠٠ فلما أصابه ذلك الجرح ونزف زال كثير مما كان يشكو

وبرىء ، وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلوا ، وقفوا فتقابلنا ، فجـــاءنى ابن عمى ذخيرة الدولة أبو القنا خطــام فقال :

ـ يا بن عمى معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم ؟

فقلت لغلامى :

قدم له الحصان الأحمر !

فقدمه ، وساعة ما استوى فى سرجه حمل على الافرنج وحده ، فأفرجوا له حتى توســـطهم ، فرموه وطعنوا الحصان ، وقلبوا قنطارياتهم وصاروا يركشونه بها وعليه زردية حصينة ما تعمل رماحهم فيها ، فتصايحنا :

ـ صاحبكم .. صاحبكم ...

وحملنا عليهم فهزمناهم عنه ، واســـتخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات فى يومه ، وتلك الوقعة كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

وتنوع الحديث من الطعان الى القنص ، الى اللغة والشعر ، الى تاريخ العرب الذين حملوا راية الاسلام أول ما حملت وينبغى أن تظل فى أيديهم ليدفعوا المغيرين عن أرضهم ، قال له :

فهل اذا تقدم اليك عماد الدين بعد أن انتزع الرها من جوسلان اللعين (١) . وقال ندفع الافرنج تفعل يا مولاى ؟

---

(١) كان ذلك عام ١١٤٤ ويعد فى نظر جميع المؤرخين نهاية الفتح اللاتينى، وقد أعقبته مرخلة أطلقوا عليها زورا عهد الردة الاسلامية والأولى عهـــد الجهاد بدأه عماد الدين زنكى وختمه الناصر صـــلاح الدين ، وثمة مرحلة ثالثة صاحبت القرن الثالث عشر الميلادى ، وفيها قضى خلفاء صلاح الدين والمماليك على الصليبيين فى الشرق العربى .

ـ فأجاب :

ـ أنا لا أوتى من هذه الثغرة ٠

فتساءل أسامة :

كيف يا مولاى ؟

فقال الخليفة :

ـ لمودود وايلغازى بعث لهما المستنصر رحمه الله فى شىء كهذا فراد عليه كما أخبرت أقبح رد ، أتدرى لماذا ؟

ولم يحر أسامة جوابا فقال الخليفة :

ـ لأننا شيعة وكأن للسنيين وحدهم شرف الجهاد ٠

قال أسامة :

ـ ولكننا اليوم نحتاج الى وحدة يدعمها المسلمون على مختلف مذاهبهم ٠

فقال الخليفة :

ـ اسمع يا أبا المظفر لن يطرد الفرنجة الملاعين الا اذا قامت دولة كدولتنا فى وجههم ٠

فتساءل أسامة :

ـ ولماذا لا تفعل ؟

فأجاب :

ـ لأننا يوم نضع أقدامنا فوق أرض الشام سـنجد الأمراء المسلمين أول من يتصدى ٠

وأحس أسامة أن الحافظ على حق ، فمن تراه يرضى بأن يكون عاملا من عمال أتابك الموصل أو أتابك دمشق ؟ وهل يقبل عماد الدين ـ مثلا ـ أن ينضوى تحت علم مسعود لمحاربة شياطين أنطاكية وقلعتهم ؟ بل ترى ينزل عمه عن شيزر بحجة تأسيس دولة قوية موحدة تقدر على مطاردة الصليبيين الى بلادهم التى جاءوا منها ؟ على أنه بينما أصبح اسم عماد الدين فى الشام ملء الأفواه والأسماع فان نجاحه فى احتلال الرها أثار الكمد فى قلب الحافظ وعدم الارتياح فى نفس أسامة ، فقد أتيح للغول الذى كان هامدا أن يتحرك • وبدأ الأمراء المسلمون ـ الذين كانوا لا يزالون مستقلين حتى ذلك الوقت ـ يوجسون خيفة من فقدان أملاكهم ، بل ثارت ثائرة بعضهم فصبوا أحقادهم عليه وأوشك أقوام المسلمين على الضياع •

وفى زيارة لدار الحكمة ـ وهى التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ ـ أدخل داعى الدعاة كلا من الحافظ وأسامة بعد أن طاف بهما فى ردهة المطالعة والمكتبة الى خزانة هائلة بها آلاف الكتب ، فقال الحافظ :

ـ ها هنا يا أبا المظفر كلام المشارقة الذى يخالف مذهبنا •
فعلق أسامة بعبارة غامضة أيد بها وجهة نظر الخليفة ، فاستطرد هذا قائلا :

ـ وحتى يتمكن دعاتنا من الرد عليهم سنظل مفترقين •

وكانت العبارة مؤلمة للغاية ، فأسلمت أسامة الى اليأس ، لأنه كان على ايمان بأن الخلف بين الفواطم والسنيين ـ وقد نشأ على التسليم بوجوده ـ ليس كبيرا الى الحد الذى يريد الحافظ أن يبينه بالدليل المحسوس • فقد قرأ عن الامامية التى ينتمى اليها الفواطم ، فرآها فى جملتها لا تتعارض مع حسن العقيدة بل ان الاسماعيلية وهى احدى شعب الامامية الألصق بالفواطم من غيرها ، لا خطر منها

الا اذا اشتطت فى التأويل لأنها عن طريقه تستطيع بسهولة أن تكيف الدين على النحو الذى يتفق ومالها من عقول أو ميول ٠

ومع ذلك فان الحافظ لم يكن كنديمه تماما ، وعبر عن وجهة نظره بقوله :

– ان ما يعنى أقوام المسلمين اليوم هو الافرنج ، أليس كذلك ؟ اذن فسنأخذ على عاتقنا زحزحتهم ، لأن مصر وحدها تستطيع ذلك ، وستفعل ان شاء الله ٠

وقد كان على أكبر الظن أكثر تفاؤلا مما ينبغى – على الأقل حتى ذلك الزمن – لأن سقوط الرها أثار الغرب ، فهب القديس برناردوس يطوف بلاد الفرنج مستثيرا الهمم ، فاستجاب الملوك هذه المرة – لا الأمراء – وتزعم القيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا (١) ٠ وفى سنة ١١٤٦ قتل عماد الدين بضربة خنجر فتمكن جوسلان من استعادة الرها ، فلم يجد خليفته الملك العادل نور الدين زنكى بدا من أن يشدد ضرباته عليه وعلى ريمون دى بواتييه ، وهكذا وجد ملوك أوروبا مسوغا للتدخل ٠ غير أنهم بدءوا بدمشق فوصل اليها كونراد سنة ٥٤٣ / ١١٤٨ على أن يمده عمانوئيل ويضرب حلب وغيرها من مدن الشمال ، الا أن شيئا من ذلك لم يقع ، فانهزم أمام معين الدين أنر وجلا عن المدينة مدحورا (٢) ٠

أما الأمور فى مصر ، فكانت تمضى كما اعتادت أن تمر ٠ ثمة صراع على السلطة ومؤامرت تدبر ، وأمراء يتنازعون قيادة فرق الجيش ، والخليفة يتعبد أو يلهو أو يخرج للقنص ، ومعه أسامة دائما

---

(١) ابن الأثير فى الكامل ٩ : ٢٠ وأبو الفداء فى المختصر من أخبار البشر ٣ : ٢٠ ٠

R. Grousset: Croisades, Vol. II, PP. 230-233.

(٢) Ibid, II, 250-268.

لا يكاد يخوض معه فيما يجرى حتى يرده الى ما هما فيه ، وفى احدى المرات قال لمن حوله :

ـ أى شيء شغل هذا الا القتال والصيد ؟

ومع هذا فقد أبى أسامة الا أن يقول الكلمة الأخيرة قبل أن يموت الحافظ . وكان قد تذاكرا حسن بلاء معين الدين .

ـ لقد خرج عسكر دمشق وأهلها لقتـــال ملك الأمان ، وفى جملتهم الفقيه الفندلاوى والزاهد الحلحولى فلما قارباهم قال الفقيه للحلحولى « أما هؤلاء الفرنج ؟ » قال بلى ـ قال « فالى متى نحن وقوف » قال « سر على اسم الله تعالى » فتقدما وقاتلا حتى قتلا .. اننا نريد أن نموت ميتتهما ان شاء الله !

(٦)

كرسى الوزارة

توالت الأنباء بهجوم بلدوين الثالث ـ ملك أورشليم الجديد ـ على طبرية والتى كان الفواطم يملكونها ، فاستدعى أسامة من كوم أشفين ونزل الدار السلطانية كعادة وزراء العصر دون أن يرى الخليفة فى يومه لمرضه • وبينما هو فى انتظاره شبت فتنة كانت نائمة بين فرق السودان المختلفة ، فوقف عبيد الحافظ ـ وهم الريحانية ـ فى جانب ، وفى جانب آخر الفرحية والاسكندرانية والجيوشية الذين ضموا اليهم قوم من صبيان الخاص •

فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ـ على ما يذكر أسامة فى مذكراته ـ وغاب عنهم الحافظ ، وترددت اليهم رسله وحرص على أن يصلح بينهم ، فما أجابوا الى ذلك وهم معه فى جانب البلد • فأصبحوا وقد التقوا فى القاهرة ، فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية فقتلت منهم فى سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة • ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل مجيئى الى مصر • وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، ولكنه كان مريضا فمات بعد يومين وما انتطح فيها عنزان !

وكان الظافر بأمر الله (١) الخليفة الجديد حدثا فطمع كبار الفاطمية فيه ، وبالنسبة لأسامة لم يوله الا بعض ما كان يوليه

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٨ وما بعدها وأبو الفداء ٣ : ٢٨ وابن الأثير ٩ : ٤٣ •

اياه الحافظ ، فكان لابد من أن يبحث عن الذى يبسط عليه ظله ليحميه فى تلك الظروف العصيبة التى اختل فيها حبل الأمن فى البلاد ٠

وهنا بدأ يربط مصيره بابن السلار والى البحيرة والاسكندرية الطموح ، فسافر اليه ـ وكان الظافر بأمر الله قد اختار وزيره نجم الدين بن مصال ـ فوجده غاضبا لذلك ، كذلك وجد عنده بعض كبار الموظفين يشجعون على أن يجبر الخليفة ـ ذلك والحدث اللاهى ـ على استبداله بابن مصال الشيخ الهرم ٠ وانتهى هذا الى الظافر ، فجمع أمراءه فى مجلس الوزارة ونفذ الينا زمام القصور يقول :

ـ يا أمراء : هذا نجم‌الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمتثل أمره ٠

فقال الأمراء :

ـ نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون ٠

فرجع الزمام بهذا الجواب ، فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له لكرون :

ـ يا أمراء ، نترك على بن السلار يقتل ؟

قالوا :

ـ لا والله ٠٠٠

قال :

ـ فقوموا !

فنفروا كلهم وخرجوا من القصر ٠ شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال « أخرج

الى الحوف ، إجمع واحشد وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك •

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته فأحسن اليهم ، وأمرنى أن أبيت أنا وأصحابى فى داره ، وأفرد لى موضعا فى الدار أكون فيه ، وابن مصال فى الحوف قد جمع من لواتة - وهى قبيلة من البربر - ومن جنـد مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا •

وقد خرج عباس ركن الدين - وهو ابن امرأة على بن السلار - ضرب خيمة فى ظاهر القاهرة ، فغدت سرية من لواتة فيهم نسيب لابن مصال وقصدوا مخيم عباس • فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم ، وبلغ الخبر الى ابن السلار فاستدعانى فى الدار وقال :

- هؤلاء الكلاب جند مصر قد شغلوا الأمير بالفوارغ حتى عدا اليه قوم من لواتة سباحة فانهزموا عنه ودخل بعضهم الى بيوتهم بالقاهرة والأمير مواقفهم •

قلت :

- يا مولاى ، نركب اليهم فى سحر فما يضحى النهار الا وقد فرغنا منهم ان شاء الله تعالى •

قال :

- صواب ، أبكر فى ركوبك •

فخرجنا اليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم الا من سـبحت به فرسه فى النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال وضرب عنقه • وجمع العسكر مع عباس وسيره الى ابن مصال ، فلقيه على دلاص ، فكسرهم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل • وحملوا رأس ابن مصال الى القاهرة ، ولم يبق لسيف الدين

من تعانده ولا تشاققه • وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ، ولقبه الملك العادل ، وتولى الأمور •

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر . فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم وأنفق فيهم أن يهاجموا داره ويقتلوه • وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل وافتراق الأصحاب ، وأنا تلك الليلة عنده • فما فرغ الناس من العشاء وافترقوا — وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه أحضر رجلين (١) من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التى هم فيها مجتمعون وكانت الدار لما أراده الله من سلامة بعضهم لها بابان ، الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد . فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم الى الباب الآخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب .

وجاءنى منهم فى الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ، كانوا أصدقاء غلمانى نخبئهم • وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر منهم قتل !

وعلى هذا النحو يمضى أسامة فى مذكراته ، فاذا كنا أسقطنا بعض المواقف التى ذيل بها تلك الوقعة الأساسية فلأنها لا تقدم شيئا أكثر من هذا • فقد ظهر بوضوح اختلال الأحوال فى تلك الفترة ، وعلى الرغم من أن الأزمة الوزارية لم يطل أمدها فان ابن السلار أبى الا أن يستنجد بالملك العادل نورالدين . وكان هذا فى حد ذاته دليلا على ضعف حكومة الفواطم ، واستغل الفرنج هذا الضعف فبدأوا يوجهون ضرباتهم اليها طامعين فى الاستيلاء عليها ،

---

(١) رجلين : بتسكين ثانيه جماعتين من المقاتلة الرجالة أى الذين لا يركبون .

كأنهم عرفوا أن ضمان بقائهم في بيت المقدس مرهون بتحطيم قوة مصر أولا .

والعجيب أن أسامة نصح ابن السلار بالابتعاد عن نور الدين ، ربما لأنه كان يحس بأنه ليس خيرا من أبيه ، وربما لأنه كان يؤمن بأنه لو امتدت يده الى الديار المصرية فستمسك بتلابيبه هو ــ لموقفه من أبيه في معركة دمشق ــ أول ما تمسك ، ولكنه عندما رأى المحظور يقع قال لأخيه :

ــ علينا يا أبا عبد الله أن نبحث لنا عن وطن جديد .

ولما كانت هناك علاقة قامت بينه وبين طلائع بن رزيك والى منية بنى خصيب (١) قال :

ــ وتنسى ما بيننا وبين أبى الغارات من أسباب تحمينا ؟

ولحسن حظه أن الفتنة أخمدت وان قتل فيها كثير من السودان والمصريين ، وكانت النتيجة ارتفاع نجم أبى الفضل عباس ابن أبى الفتوح ابن زوجة الوزير الجدية الذى حمل اليه رأس ابن مصال ، وشرع مع أسامة (٢) ــ الذى أنقص ابن السلار مخصصاته ــ يضعان الخطط للمستقبل واضعين فى تقديرهما ثلاثة أمور :

أن الظافر لا أمل فيه لأنه كان كثير اللهو ، يتفرد بالجوارى ويسمع الى المغانى (٣) .

أن الملك العادل نور الدين هو المنافس الوحيد للفرنج فى غزو مصر ، ولابد من استغلال هذا الموقف لصالح الديار المصرية .

---

(١) منية بنى خصيب : هى المنيا حاليا ، نسبت اولا للخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر أيام الرشيد فى اقليم الأشمونيين .

(٢) يراجع خبر اتصال أسامة بركن الدين عباس فى النجوم الزاهرة ٥:٣٠٩.

(٣) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٨ وما بعدها .

ان الملك العادل أبا الحسن بن السلار كثيرا ما يظهر الضغن ، ولذلك يجب مراقبة الطامعين فى منصبه وكسرهم ، والا فركن الدين عباس بن أبى الفتوح أولى الجميع بالوزارة .

وليس أحد يدرى كيف انتهى المغامران الى تلك النتيجة ، وهل أتبعاها بخطوات تنفيذية معينة ، فان أسامة لا يذكر شيئا فى حين يشير بعض من كتب عنه الى أنه « انقلب » على ابن السلار وأخذ « يحرض » ابن زوجته عليه حتى حانت اللحظة الفاصلة .

ويتطوع ابن ميسر فى « أخبار مصر » ببسط جانب من المؤامرة وهى فى حيز التنفيذ بعد أن مرت سنون ، ففى مضاف عام ٥٤٧ / ١١٥٣ لحفظ عسقلان من الفرنج عقد لواء القيادة لركن الدين عباس بن أبى الفتوح وصحب معه أسامة ، فراحا يتذاكران فى بلبيس حسن القاهرة وطيبها والرجال القائمين عليها ، وما كان من أمر ابن السلار الذى جرد ركن الدين من كثير مما يستحقه . فأخذ عباس يلوم عمه زوج أمه ، فقال له أسامة :

ـ لو أردت لكنت أنت سلطان مصر .

فقال :

ـ كيف الحيلة ؟

فأجاب قائلا :

ـ هذا ولدك ناصر الدين نصر بن عباس بينه وبين الظافر مودة عظيمة ، فخاطبه على لسان ولدك أن تكون أنت السلطان موضع عمك ... فانه يختارك ويكره عمك ، فان أجابك فاقتل عمك .

وقبل أن يتم أى شىء زحف نور الدين على دمشق (١) فشرع الفرنج فى ضرب طبرية طامعين فى بعض ما يطمع فيه الأتابك الخطير ، فلم يجد ابن السلار الا أن « يأمر » أسامة بالتوجه الى نور الدين فى مهمة سرية فصدع وهو متخوف !

---

(١) تمكن نور الدين محمود من انتزاع دمشق سنة ١١٥٤ من آخرسلالة طفتكين مزيلا بذلك الحاجز القائم بينه ومدينة القدس — يراجع كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ١ : ٧٧ وتاريخ أبى الفداء ٣ : ٢٩ وتاريخ ابن الأثير ٩ : ٤٥ .

(٧)

صفحات من مذكراته

تقدم الى الملك العادل بالتجهيز للمسير الى الملك العادل نور الدين وقال :

ـ تأخذ معك مالا وتمضى اليه لينازل طبرية ويشغل الفرنج ، لنخرج من هاهنا نخرب غزة .

وكان الافرنج خذلهم الله قد شرعوا فى عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، فقلت :

ـ يا مولاى فان اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، بأى شيء تأمرنى ؟!

قال :

ـ انزل على طبرية فأعطه المال الذى معك ، وان كان له مانع فديون (١) من قدرت عليه من الجند واطلع الى عسقلان فأقم بها فى قتال الافرنج ، واكتب الى بوصولك لآمرك بما تعمل .

ودفع الى ستة آلاف دينار مصرية وحمل جمل ثياب دبيقى وسقلاطون ومسنجب ودمياطى وعمائم ، ورتب معى قوما من العرب

---

(١) ديوان : بفتح فسكون ففتح فعل فارسى ، من الديوان ، والمقصود ديوان الجند ، بمعنى أنه يجمع المقاتلين ويسجلهم جنودا فى الديوان .

أدلاء وسرت وقد أزاح علة سفرى بكل ما أحتاجه من كثير وقليل ، فلما دنونا من الجفر ــ وهى واحة بين مصر وفلسطين ــ قال لى الأدلاء

ــ هذا مكان لا يكاد يخلو من الافرنج ٠

فأمرت اثنين من الأدلاء ركبا مهرين وسارا قدامنا الى الجفر ، فما لبثا أن عادا وقالا :

ــ الفرنج على الجفر

فوقفت وجمعت الجمال التى عليها ثقلى ورفاقا من السفارة كانوا معى ورددتهم الى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكى وقلت :

ــ تقدموا وأنا اثركم ٠

فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد الى واحد منهم وقال :

ــ ما على الجفر أحد ، ولعلهم أبصروا عربانا ٠

وتنازع هو والأدلاء ، فنفذت من رد الجمال وسرت ، فلما وصلت الجفر وفيه مياه وعشب وشجر قام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه ٠ وتفرق أصحابى فأخذوا رجلا آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهم مسكت ثوبى وقالت :

ــ يا شيخ ، أنا فى حسبك !

قلت :

ــ أنت آمنة ، مالك ؟

قالت :

ــ أخذ أصحابك لى ثوبا وناهقا ونابحا وخرزة ٠

قلت لغلمانى :

ـ من كان أخذ شيئا يرده ٠

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، فقالت :

ـ هذا الثوب !

وأحضر آخر قطعة سندروس فقالت :

ـ هذه الخرزة !

ـ قلت :

ـ فالحمار والكلب ؟

قالوا :

ـ الحمار قد ربطوا يديه ورجليه وهو مرمى فى العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان الى مكان ٠

ـ فجمعتهم ، ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم على عظامهم ، فقلت :

ـ أيش أنتم ؟

قالوا :

ـ نحن من بنى أبى ٠

وبنو أبى فرقة من العرب من طىء لا يأكلون الا الميتة ويقولون « نحن خير العرب ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى » واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم ، قلت:

ـ ما جاء بكم الى هنا ؟

قالوا :

ـ لنا بحسما كثول ذرة مطمورة جيئنا نأخذها ٠

قلت :

– وكم لكم هنا ؟

قالوا :

– من عيد رمضـــان لنا هاهنا ، ما رأينا الزاد بأعيننا ٠

قلت :

– فمن أين تعيشون ؟

قالوا :

– من الرمة ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف ونتقوت به ٠

قلت :

– فكلابكم وحمركم ؟

قالوا :

– الكلاب نطعمها من عيشنا والحمر تأكل الحيشيش

قلت :

– فلم لا دخلتم الى دمشق ؟

قالوا :

– خفنا الوبأ ٠٠٠

ولا وبأ أعظم مما كانوا فيه ، وكان ذلك بعـــد عيد الأضحى ، فوقفت حتى جاءت الجمال ٠ وأعطيتهم من الزاد الذى كان معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسى أعطيتها للمرأتين ، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد وقلت :

– لا تقيموا هنا يسبيكم الافرنج ٠

ووصلنا فى طريقنا الى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين على دمشق • وقد وصل الى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه • فسرت معه الى العسكر ، فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت فتحدثت معه بما جئت به ، فقال لى :

ـ يا أبا المظفر ، أهل دمشق أعداء والافرنج أعداء ما آمن منهما اذا دخلت بينهما •

قلت له :

ـ فتأذن لى أن أديون من محرومى الجند قوما آخذهم وأرجع ، وتنفذ معى رجلا من أصحابك فى ثلاثين فارسا ليكون الاسم لك ؟

قال :

ـ افعل

فديونت الى الاثنين الآخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ، وسرت فى وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق • وسير معى نور الدين الأمير عين الدولة الياروقى فى ثلاثين فارسا ، فاجتزت فى طريقى بالكهف والرقيم فلما وصلنا عسقلان سحرا ، وضعنا أثقالنا عن المصلى ، وصبحنا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج الينا ناصر الدولة ياقوت والى عسقلان فقال :

ـ ارفعوا .. ارفعوا أثقالكم .

قلت :

ـ تخاف لئلا يغلبنا الافرنج عليها ؟

قال :

ـ نعم !

قلت :

ـ لا تخف ، هم يروننا فى البرية ويعارضوننا الى أن وصلنا الى عسقلان ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟

ان الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا الى بلادهم .

جمعوا لنا ، وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان ، فخرجنا اليهم وقد برز راجل عسقلان ، فدرت على سرب الرجالة وقلت :

ـ يا أصحابنا ، ارجعوا الى سوركم ودعونا واياهم ، فان نصرنا عليهم فأنتم تلحقوننا ، وان نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم !

فامتنعوا من الرجوع ، فتركتهم ومضيت الى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها . فاحتطنا بهم ، وأعجلناهم عن طى الخيام ، فرموها كما هى منشورة وساروا راجعين . فلما تفسحوا عن البلد تبعهم من الطفوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء ، فرجع الافرنج . حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا ، فانهزمت الرجالة الذين رددتهم فما رجعوا ورموا تراسهم . ولقينا الافرنج فرددناهم ومضوا عائدين الى بلادهم وهى قريبة من عسقلان . وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون وقالوا :

ـ كان ابن منقذ أخبر منا ، قال لنا ارجعوا فما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا .

وكان أخى عز الدولة أبو الحسن على فى جملة من سار معى من دمشق هو وأصحابه الى عسقلان . وكان يقاتل للدين لا للدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل وقتالهم ، فوصلنا وقاتلناهم . ورأيت عند رجوعنا الى البلد غلة كبيرة ، فوقفت فى أصحابى وقدحنا نارا وطرحناها فى البيادر ، وصرنا ننتقل من موضع الى موضع ، ومضى العسكر . تقدمنى ،

فاجتمع الافرنج ــ لعنهم الله من بيت الحصون وهى كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمغاداة عسقلان ومراوحتها ،وخرجوا على أصحابنا فجاءنى فارس منهم يركض وقال :

ــ قد جاء الافرنج

فسرت الى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج ، وهم لعنهم الله أكبر الناس احتزازا فى الحرب . فصعدوا على رابية ووقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية وبين الرابيتين فضاء . أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لا ينزل اليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة . ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم فى قلة وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

وما زال الافرنج وقوفا على تلك الرابية الى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا الينا ، فاندفعنا بين أيديهم والقتال بيننا لا يجدون فى طلبنا . ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه، ثم عادوا عنا . وقدر الله سبحانه لنا السلامة باحترازهم ، ولو كنا فى عددهم ونصرنا عليهم ــ كما نصروا علينا ــ كنا أفنيناهم .

فأقمت بعسقلان لمحاربة الافرنج أربعة أشهر ، هاجمنا فيها مدينة ــ يبنى ــ وهى فرضة بحرية فى فلسطين ــ وقتلنا فيها نحو مائة نفس ، وأخذنا منها أسارى .

وجاءنى بعد هذه المدة كتاب الملك العادل يستدعينى ، فسرت الى مصر وبقى أخى عز الدولة أبو الحسن على بعسقلان . فخرج عسكرها الى قتال غزة فاستشهد ــ فى شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ــ وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

(٨)

صراع فى القاهرة

لم يدر أسامة بسفره الى نور الدين ماذا حدث فى القاهرة حين دعاه ابن السلار للعودة ، فأخبر أن الملك العادل لما علم برجوع ناصر الدين نصر بن عباس أنكر عليه ترك أبيه فى بلبيس ، ورماه بالنزق والميل الى العبث ـ ميل الظافر تماما ـ ظانا أنه لم يرجع الا ضجرا من المقام فى العسكر .

وكان من الطبيعى أن يطلب اليه اللحاق بأبيه ثانية ، غير أنه تلكأ . وفى غفلة من الوزير وصل الى الظافر ، وأطلعه على ما جاء من أجله . فرحب الخليفة بالفكرة وأبدى استعداده لمده بجماعة من غلمانه يهاجمون دار جدته ـ فهى أم أبيه ـ حيث اعتاد أن يتردد عليها ، ويدخلها بدون اذن من أحد .

وفى اليوم المقرر ـ وكان أسامة فى طريقه الى القاهرة ـ دخل العادل الى زوجه ونام ، واتصل بنصر أستاذ من أستاذى الدار وأعلمه بنومه . فهجم عليه فى ستة من أتباعه ، وقطع رأسه ، ثم حمله الى الظافر . وفى دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو ألف رجل ـ كانوا فى دار السلام وقتل هو فى دار الحرم ـ خرجوا من فورهم للاشتباك بجند الظافر ونصر بن عباس ، وظلوا معهم فى صراع مرير حتى أمر الحافظ فرفعت رأس الوزير على رمح فى السادس من المحرم سنة ٥٤٨/١١٥٣ .

عند ذاك انقسم المتقاتلون الى قسمين : قسم خرج من باب القاهرة الى ركن الدين عباس لخدمته وتنفيذ ما يطلب ، وقسم قصد الى ابنه نصر وقبلوا الأرض بين يديه ، وهكذا دخل أسامة القاهرة وهى مهددة بحرب أهلية يشعل نارها أب وابنه !

وعلى الرغم من أن الظافر كان يرى أن يتولى نصر بن عباس الوزارة من بعد ابن السلار ـ وأحب ذلك أسامة الذى عرف بأنه صاحب فكرة التآمر ـ فان الظروف اقتضت أن يستوزر الخليفة ركن الدين ، ويفوض اليه الأمر ، ويخلع عليه . الا أنه لا يقر له قرار . فمن ناحية يرى الخليفة يزداد تعلقا بابنه نصر ، فاذا خطر له أن يوقع به ـ على عادة الخلفاء الفواطم فى ضرب الوزراء بعضهم ببعض ـ فلا شك أنه سيستغل ابنه بعد أن يوغر صدره عليه . ومن ناحية أخرى يرى الأمراء يستوحشون من صديقه أسامة حتى هموا بقتله لولا أن نبهه أبو الفارات طلائع بن رزيك فتحصن ، وأن يكونوا لا يكفون عن تحذيره منه .

والى جانب هذا فان الرجلين ـ أسامة ونصرا ـ يجتمعان معا ويتساران وكلاهما مغامر وعلى استعداد لركوب المخاطر ، فما يستبعد أن تكون ثمة مؤامرة جديدة تدبر فى الظلام .

ولقد كان يعلم عن أسامة أنه سيئ الظن بالظافر ، وكان قد أعرب له عن يأسه من أنه قد يتخذ أية خطوة ايجابية لازاحة نير الافرنج وزحزحتهم عن مواقفهم . ومصر بمدنها وطاقاتها الكبيرة وحقولها التى أصابها الدمار من جراء المعارك التى تشنها فرق الجيش : لا يمكن أن تقف على قدميها وفيها هذا الفاطمى المتهتك . لكن أسامة فى سبيل أن يحقق ما يريد ـ ولم يكن أحد يعلم تماما ماذا يريد ـ لا يجد مانعا من أن يؤازره .

انه لن يسمح بذلك .

ان ركن الدين عباس بن أبى الفتوح لا يمكن أن يتسامح فى أن يقف مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة فى وجهه .

المهمة قاسية ، ولكنهــا جليلة وضرورية ، واذن لابد من أن يسلمه للأمراء .. لكن كيف ؟

ومرت أشهر ...

وفى حساب ركن الدين سنوات من الفكر والعنـــاء والمراقبة ورصد الخطى ، حتى جاء يوما لعجبه الشديد يقول :

ــ كيف تصبر على ما يقول الناس فى ولدك يا مولاى ؟

قال عباس :

ــ ماذا يقولون يا أبا المظفر ؟

فأجاب :

يقولون ان الخليفة يفعل به ما يفعل ؟

ولقد رفض عباس أن يعلق على القالة ، ولكنه انزعج شيئا . انه لا يزال يذكر يوم أعلن أن الظافر أقطع ولده نصرا قرية قليوب كلها ، لقد دخل عليه وقال وأسامة يسمع :

ــ أقطعنى مولانا قليوب .

فتطلع أسامة اليه طويلا متفرسا فى ملامحه الجميلة وقال بسخرية :

ــ ما هى فى مهرك بكثير !

لقد بدا له على نحو من الأنحاء أن من الضرورى بعــد ذلك اقصاء نصر عن الظافر ، فان أعداءه أولئك الذين لا يطيقون رؤيته فى دست الوزارة فى استطاعتهم أن يسلكوا جميع المسالك ، والتأثير على أقرب الناس اليه مسلك سهل طروقه ، فقال :

ـ انى بعيد النظر يا أبا المظفر وقد اتخذت أهبتى ، وأقسم لك أنه مهما تكن مقدرة هؤلاء الذين يضمرون لى الكراهيــة فانهم لن ينتزعوا منى السلطان ، وليفعل الظافر ما يريد .

وهنا بدت على أسامة دلائل عدم المبالاة ، فلم يفطن الوزير الى الحبالة التى نصبها له ، وقال :

ـ فى وسعك أن تسكته يا مولاى .

ثم سكت ، ورفض بالتالى أن يمكث معه ، فاستأذن للخروج. الا أنه لم يكد يسلم نفسه للراحة حتى قدم عليه غلام عباس يدعوه للقصر ، وهناك وجـد الأب والابن يتعاتبان ، فلما رأياه اشتاط عباس مرغيا مزبدا فقال أسامة :

ـ أما تسمح حججه يا مولاى ؟

فانفجر قائلا :

ـ انه يرفض الابتعاد عن الظافر .

قال أسامة :

ـ دعه يا مولاى فقد يفيدك وجوده .

فتساءل صارخا :

ـ كيف .. كيف وهذا غر ان لم يكن فيه العته والجنون ؟ واطرق نصر لا ينبس ، فقال أسامة :

ـ يا مولاى الأفضل .. كم تلوم مولاى ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟

اجعل الملامة لى ، فأنا معه فى كل ما يعمله ما أتبرأ من خطئه ولا صوابه .

قال عباس :

ــ ما شاء الله ...

ولم يعطه أسامة فرصة أخرى للكلام ، فاستطرد بسرعة :

ــ ما أساء الى أحد من أصحابك ولا فرط فى شىء من مالك ولا قدح فى دولتك . خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة !

وهذا عباس ، بينا دمعت عينا نصر ، وأما أسامة فقد قام وقبل رأس الوزير وهمس :

ــ فى وسعك أن تريح نفسك يا مولاى .

فتساءل :

ــ كيف ؟

فهب نصر على قدميه وصرخ :

ــ أنا أعرف الطريقة يا مولاى ، وما يجب أن تعرفه مما أخفيته عنك هو أن الظافر يحرضنى عليك ، وأنا مضطر الى مصانعته لأحفظك منه !

وبين ذهول عباس وحزنه صدق أسامة على رواية ابنه : وراح يحكى ما كان من ذلك . ونستطيع أن نستطلع فيه مذكراته ، فنقف على ما لا تذكره أثبات التاريخ ، مما يلقى فى الروع أن المؤلف حاول أن يبرىء نفسه من تهمة هو قبل أى انسان آخر يعلم شنعتها .

فهو يقول انه كان عند نصر ليلة فى دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل ــ وهو الذى يتردد بينه وبين الخليفة ــ فتحدث معه الى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ثم انصرف ، فاستدعانى وقال :

ــ أين أنت ؟

قلت :

ـ عند الطاقة أقرأ القرآن ، فانى اليوم ما تفرغت أقرأ .

ـ فابتدأ يفاتحنى بشيء مما كان فيه ليبصر ما عندى فى ذلك ، ويريد بى أقوى عزمه على سوء ماقد حمله عليه الظافر ، فقلت :

ـ يا مولاى لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل .. فلا تفعل شيئا تلعن عليه الى يوم القيامة .

فأطرق ، وقاطعنى الحديث ونمنا . فأطلع والده على الأمر فلاطفه واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

(٩)

عام ١١٥٤ الرهيب

لا ينكر أسامة أنه جاء الى مصر وفى جعبته عشرات من المشروعات الحيوية ـ له ولأقوام المسلمين ـ وعلى شفتيه عشرات من جمل الملق التى تعبد الطريق أمام الوعود البراقة . وقد نظم حياته أو حاول أن ينظمها على أساس ارضاء جميع الأطراف المتنازعة ، وكانت لديه دائما الحلول لمن تستعصى عليه الحلول . وبدا بوضوح أن فى وسعه أن يبتكر لكل أمير ـ وبخاصة ناصر الدين الذى كثيرا ما نام ورأسه على مخدته ـ حيلة طريفة تتفق وظروفه . فالتذلل واجب مقرر اذا ما كان صاحب الأمر يرضى الشهوة فى الاثراء ، واذا ما وجه الخليفة أو من يليه فى المنصب جل اهتمامه الى العبث فليس بمانع من أن تزين أمامه طرق الشيطان ، واذا كان ثمة حلم بالأمجاد السياسية ـ أو حتى العسكرية ـ فلا يضير اذا أفشيت بعض الأسرار ، وأما الذين يحبون الشعر ومدارسة العلم فان اقتراح كتاب معين أو القاء قصيدة أو مناقشة قضية لغوية خير ما يزجى ويجدى .

وكان الاعتقاد بالغيبيات والتخميس والتسبيع مع القول بالأئمة المستورين وعصمتهم شائعا جدا يومذاك ، فلم يجد هو ضررا فى أن يغمض عنه عينيه ، بل روج له فى بعض مجالس الدين التى كان يحضرها فى دار العلم التى كانت تسمى أيضا « دار الحكمة » .

على أنه برغم ذلك كله أو مع ذلك كله لم يضع فى حسابه أن يدعو الى الاغتيال ، ويوم اقترح على ركن الدين عباس أن يكون صاحب الأمر بقتل الملك العادل ، فانه كان يرجو أن يتم الأمر بكلمة يقولها الظـافر . وليس ذلك لأنه يستبشع القتل ـ فقد قتـل غلام أبيه وهو بعد يافع ـ ولكن لأنه يؤلب عليه الآخرين . ولئن وقع ما خافه فقد تمكن من أن يظل حيث وضعه الحافظ ، بالعكس زادت أملاكه واتسع عيشه وكثر المال بين يديه فى الوقت الذى كان يتضور فيه عشرات الآلاف .

واليوم يعود الى أسلوب الاغتيالات ، ومع من ؟ مع الخليفة الذى أعترف ـ أو تظاهر بالاعتراف بعصمته ـ فقد انتهى اذن الى أن أصبح سفاحا ، وانهارت آماله فى أن يظل النظيف اليدين الذى لا يدعو الا الى جمع الكلمة والجهـــد لمواجهة الفـرنج الصليبيين ، وكأن روح الشر قد تقمصته أو كأن شيئا غامضا كان يلح عليه فى ان اســـتمرار ظروف مصر عـلى ذلك النحو المضطرب لا شك سيلقى عن كتفيه عباءة الشرف والجاه .

واذ يرى أن الحرص ضرورى فى هـذه المرة ، فقد دبر الأمر بحيث يتم كل شىء ـ كما رأينا ـ على يدى ركن الدين وابنه ناصر الدين ، وتلبث حتى نضجت الثمرة وأسرع الى اقطاعه فى كوم أشفين . ولم ينس أن ينبه ناصرا بصفة خاصة الى أن تقرب الخليفة منه وتودده وهداياه الثمينة له ـ فقد بعث اليه على مرات صوانى فضية بها ما مجموعة ثلاثة آلاف ألف دينار عدا البغال والجمال والكسوات ـ لا يمكن أن تساوى شيئا اذا قيست بحق الأبوة عليه .

وكان من عادة الظافر ونصر ـ وهما تربان سنهما واحدة ـ أن يخرجا فى الليل من القصر فيعيثان فسادا ، فدعاه الى داره التى كانت فى سوق السيوفيين بعد أن أعد من أصحابه نفرا

يكمنون له فى جانب الدار . فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه هو وغلام له اسمه سعيد الدولة ، ورموا بهما فى غيابة جب .

حدث هذا ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وفى صباح الخميس ـ على ما يذكر أسامة ـ جلس الوزير فى خزانة مجلس الوزراء كالعادة للسلام ، فلما انقضى وقت ظهور الخليفة استدعى زمام القصر وسأله :

ـ ما لمولانا ما جلس للسلام ؟

فارتج على الزمام ولم يحر جوابا فصاح فيه :

ـ مالك لا تجاوبنى ؟

قال :

ـ يامولاى مولانا ماندرى أين هو ؟

فقال :

ـ مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال ..

فمضى ورجع قائلا :

ـ ما وجدنا مولانا ..

فقال الوزير :

ـ ما يبقى الناس بلا خليفة .. ادخل الى الموالى اخوته يخرج منهم واحد نبايعه ..

فمضى وعاد ، وقال :

ـ الموالى يقولون لك « نحن مالنا فى الأمر شىء ، والده عزله عنا ، وجعله فى الظافر والأمر لولده من بعده » .

قال :

ـ أخرجوه حتى نبايعه .

كان الوزير قد عقد عزمه على القاء تهمة اختفاء الخليفة على أخويه ابنى الحافظ وهما : أبو الأمانة جبريل ، والأمير يوسف ابن الحافظ ، وعلى ابن أخيهما الأمير أبى البقاء . فدخل عليهم حاملا الفائز بن الظافر ــ وكان طفلا فى الرابعة ــ فبكى كل من كان فى القاعة .

وفى القصر أكثر من ألف مصرى ، فما راعنا الا فوج قد خرج من المجلس الى القاعة وصوت السيوف على انسان ، فقلت لغلام لى أرمنى :

ــ أبصر من هذا المقتول ..

فمضى ثم عاد وقال :

ــ هذا مولاى أبو الأمانة قد قتلوه وواحد قد شق بطنه ويجذب مصارينه ..

ثم ظهر عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت أبطه وقد ضربه بسيف والدم يفور منه ، وأبو البقى ابن أخيه مع نصر بن عباس . فأدخلوهما فى خزانة فى القصر وقتلوهما ، وفى القصر ألف سيف مجردة (١) .

وهكذا انتهى كل شىء بالنسبة لخليفة مضى وخليفة جاء ، ولكن الجنود ثاروا واختلفوا بينهم ــ كما قدر أسامة ــ شيعا وأحزابا وتبعهم الناس وقد اشتموا رائحة الغدر فأضمروا للوزير العداوة والبغضاء . وهاجموه ، فاضطر الى أن يقاومهم ، ويقود أسامة مع ابنه نصر المعارك فى الشوارع والأسواق . وفى

---

(١) يحسن أن يقابل هذا بما رواه ابن تغردى بردى فى النجوم الزاهرة ٥ : ٣٠٥ .

الوقت نفسه استصرخ أخوات الظافر أبا الغارات طلائع ابن رزيك ، فترك منية بنى خصيب وزحف الى القاهرة ، وتمكن برغم المقاومة الشديدة التى أبداها الوزيريون — ولا ندرى هل ظل أسامة من بينهم على طول الخط — استولى ابن رزيك على دار الوزارة .

وفى الوقت الذى كان عباس فيه يعمل على اللجوء الى دمشق — وقد ملكها نور الدين محمود — هو وعشيرته وعشيرة أسامة ، كان هذا على اتصال بابن رزيك . وتم الاتفاق بينهما على أن يبقى ليكون عونه وساعده فى عهد مصر الجديد « عباس ما يقدر على المقام بمصر بل هو يخرج منها الى الشام وأنا أملك البلاد . وأنت تعرف ما بينى وبينك ، فلا تخرج معه . فهو بحاجته اليك فى الشأم يرغبك ويخرجك معه ، فالله الله لا تصحبه ، فأنت شريكى فى كل خير أنا له » .

ومن ناحية أخرى بدا عباس كأن الشياطين وسوست له بذلك فقال بعد أن استحلفه أن يكون معه وأحضر أهله فى ركابه « أنا أحمل كلفتهم عنك فى الطريق ، وأحملهم مع والدة ناصر الدين » .

وكان من قبل قد استدعى جماعة من مقدمى العرب — من درماء وزريق وجذام وسنبس وطلحة وجعفر ولواته — واستحلفهم أيضا بالمصحف والطلاق على مثل ذلك . فما راعهم فى صباح الجمعة الا والناس قد ادرعوا ، وزحفوا اليهم بالسلاح يقودهم الأمراء الذين استحلفهم عباس . وهنا طلب عباس من أسامة أن يخرج فى ثمانمائة فارس للمقاومة ، الا أن الزريكيين ظهروا عليهم ، فتفرقوا .

فلما خرجنا من باب النصر — هاربين بمن معنا من الأتراك — وصلوا الى الأبواب . أغلقوها وعادوا الى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة

والذهب والكسوات شيء كثير .. وأخـــذوا من اصطبلى ستة وثلاثين حصانا وبغلة سروجية ، بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعى من كوم أشفين مائتى رأس بقر وألف شية وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلفهم عباس وقاتلونا من يوم الجمعـــة ضحى نهار الى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلوننا النهار كله ، فاذا جن الليـــل ونزلنا أغفلونا الى أن ننـــام ، ثم يركبون فى مائة فارس ويدفعون خيلهم فى بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج اليهم أخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابى وتحتى حصان أبيض هو أردأ خيلى ، شده الركابى ولا يدرى ما يجرى ، وما معى من السلاح غير سيفى . فحمل على العرب فلم أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجينى منهم حصانى وقد وصلتنى رماحهم . قلت أثب عن الحصـــان وأجذب سيفى أدفعهم ، فجمعت نفسى لأثب فتتعتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسى ودخت حتى ما بقيت أدرى بما أنا فيه . فوقف على منهم قوم ـ وأنا جالس مكشوف الرأس غائب الذهن وسيفى مرمى بجهازه ـ فضربنى واحد منهم ضربتين بالسيف وقال :

ـ هات الوزن !

وأنا لا أدرى ما يقول ، ثم أخذوا حصانى وسيفى . ورآنى الأتراك فعادوا الى ، ونفذ لى ناصر الدين بن عباس حصانا وسيفا ، وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحى . وعجزت عن حمل أهلى ، فرددتهم من بلبيس الى الملك الصالح أبى الغارات طلائع بن رزيك .

وأما عباس وهـو وأخوه نجم الدين أبو عبد الله محمد وناصر الدين نصر وابنه الثانى حسام الملك فقد اتخذوا طريقهم الى الشام ، واضطروا الى أن يعبروا بلادا يملكها الافرنج . وفى يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول — ٥ من يونيو سنة ١١٥٤ — دهمهم الفرنج ، وقتلوا عباسا وحسام الدين وأسروا ناصر الدين ابنه ووضعوا أيديهم على خزانته وحرمه وقتلوا من ظفروا به من الموالى (١) . وأما أسامة فقد أفلت تاركا أخاه فى يد الفرنج ، ولجأ بمن معه من الرجال الى الجبال حتى اذا رجعوا عنه عبر وادى موسى بغير زاد للرجال ولا علف للخيل وكان كثيرا ما يفقد بعض مواليه فى هجمات غادرة يشنها عليه شياطين النهابة.

وتلك الناحية — جبال بنى فهيد — لا تخلو من بعض بنى ربيعة الأمراء الطائيين ، فسألت :

— من هاهنا من أمراء بنى ربيعة ؟

قالوا :

— منصور بن غدفل .

وهو صديقى ، فدفعت لواحد دينارين وقلت :

— امض الى منصور قل له « صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل اليه بكرة » .

وبتنا فى بيت سوء من خوفهم ، فلما أضاء الصبح أخذوا عدتهم ووقفوا على عين ماء نشرب منها ، وقالوا :

---

(١) فى الروايات التاريخية أن اخت الظافر هى التى وشت بهم الى ملك أورشليم ، ونحن لا نستبعد ذلك ، فقد كان الافرنج اذ ذاك يخططون للاستيلاء على مصر وفى دعوة الأخت مبرر للتدخل — راجع مصر فى العصور الوسطى للدكتور على ابراهيم حسن ٣٣٢ ط . النهضة المصرية سنة ١٩٥٤.

ـ ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش .

وتلك العين تكفى ربيعة ومضر وكم فى أرضهم مثلها ، وانما قصدهم أن ينشئوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه اذا منصور بن غدفل يصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا ، وقال :

ـ اركب !

فنزلنا سالمين وما كدنا نسلم ، فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها اليه ، وعاد . وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الافرنج وبنى فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل وحسن دفاعه .

(١٠)

أيام نور الدين

عندما دخل أسامة على الملك العادل نور الدين محمود أدى له فروض الطاعة ومراسم الخضوع ، فتشاغل عنه لحظة ، ثم رفع اليه رأسه فاذا عيناه تومضان ببريق غريب ، وابتسامة صغيرة تداعبه بها شفتاه الرقيقتان . انه صورة من أبيه الذى طالما حذر منه الناس ، ولم يكن قد لحظ ذلك فى المرة التى التقاه فى بصرى ، الجبهة العريضة نفسها والنظرات النفاذة المنبعثة من عينين زرقاوين ، وقال له :

— الآن استرحت يا أبا المظفر ؟

قال :

— بفضلك بعد فضل الله يا مولاى .

قال الملك العادل :

— وحرمك ؟

فأجاب :

— بعث الى الملك الصالح ابو الغارات يطلب منى الرجوع اليهم ويعرض على ولاية أسوان (١) .

---

(١) فى مذكرات أسامة ما يدل على أن أسوان كانت ثغرا من ثغور المسلمين ، وقد حرص ابن رزيك على أن ينبه أسامة الى ضرورة وجوده فى ذلك الثغر لمهاجمة الأحباش .

فتساءل :

ـ وقبلت ؟

قـال :

ـ الأمر لك بعد الله يا مولاى ..

فاستضحك الملك العادل وقال :

ـ من يسمع اليك يا أبا المظفر وأنت تخاطبنى على ذلك النحو يظن أنك فى نهايتك مع أنى أراك فى الفتاء كمثل الشاب الفحل المكتمل .

فهز أسامة رأسه ببطء وقال :

ـ وهل شاب مكتمل من فى الستين يا مولاى ؟ لقد أبيض فوداوى وأصبغهما بالحناء وفقدت ضرسا من أضراسى .

قـال :

ـ والله ما تزال كما كنت وأخبرنى من لا أشك فى روايته أنك كنت كذلك أبدا منذ عشرين عاما .

فقال أسامة وهو يقبل ظاهر يده :

ـ الحمد لله ...

قال :

ـ فماذا عن طلب أبى الغارات ؟

فلما لم يجب ، قال :

ـ ما أرى الا أن بريق الحكم يأسرك !

فقال :

ـ مصر جميلة والله يا مولاى ...

قال :

ـ أتريد أن أصدقك الامر يا أبا المظفر ؟ أبو الفارات يقدرك حقيقة ولكنه يخـــافك وأنت معى ، وهو لذلك يريد أن يدنيك منه .

فقال أسامة :

ـ يريد ابعادى عنك ؟

قال ضاحكا :

ـ حتى لا تؤلبنى عليه وتصف لى عورات البلد فأهجم عليه، ليطمئن بالا .. فشغلى اليوم فرنج الشمال ، وأما مصر فأين أنا منها وبينى وبينها بيت المقدس ؟

قال أسامة :

ـ فما يطلب مولاى ؟

فأجاب :

ـ أنفذ اليه يبعث بأهلك فوالله لن تضيق بكم دمشق وأنا حى أرزق .

ولما هم أسامة بتقبيل الأرض بين يديه ، بوغت به يقـــول :

ـ على أن تدع السياسة لى ، فما أحب الســـياسة تقلب ضيوفى فأفقدهم .

وقبل أسامة التحذير عن طيب خاطر ، فتهيأت له بذلك فرص العيش والرغد ، بخاصة بعد أن رد له طلائع بن رزيك أهله ومماليكه . وكانوا قد تعرضوا لمضايقات الفرنج بعد أن تحطمت السفينة التى كانت تقلهم ، وفقدوا كل ما حملوه معهم من مصر بما فى ذلك كتبه التى بلغت أربعة آلاف مجلد ، فكانت النكبـــة الثالثة فى حياته .

وهيأ وجوده فى دمشق فرصة زيارة شيزر ، غير أنه لم يكد يصل اليها حتى توفى الله عمه أبا العساكر ، وشهد تنصيب ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد أميرا فى أخريات عام ١١٥٤ فهنأه ودعا له بطول البقاء ، وحرص على أن يطهر الجو مما علق به من سعايات ووشايات وذلك فى قصيدته :

أطاع ما قاله الواشى وما هرفا
فعاد ينكر منـــا كل ما عرفا

كذلك أشار عليه بما يضمن حدوده ضد غارات الفرنج ، وان لحظ أن اهتمام الفرنج بالحرب النورماندية (١) كان يصرفهم عن الامارات الاسلامية بوجه عام . ويبدو أن أمير أنطاكية الذى خلف ريمون دى بواتييه سنة ١١٤٩ ــ وهو رينو دى شاتيون ــ آثر أن يشغل نفسه بحرب أخرى فى طوروس مساندا عمانوئيل ، أو كأنه خاف بأس نور الدين محمود فسكت عن أقاليم ســوريا الشمالية .

المهم أن أسامة رجع الى دمشق ليشغل نفســـه بشيئين : القنص ، ومتابعة جهود نور الدين . وأعجبه منه أنه كان يتصرف بحكمة ، فاستغل ما بين دمشق والقدس من تحالف قديم وتوجه للاسماعيلية ــ أعداء شيزر الأزليين ــ فى صرخد وبصرى وبانياس ،

---

(١) فى صيف عام ١١٤٧ ابتلى عمانوئيل البيزنطى بمشكلات الحـــرب الصليبية الثانية فانتهز روجر الثانى ــ خليفة روبرت جسكارد فى صقلية وجنوبى ايطاليا ــ الفرصة واحتل كورفو ثم كورنثوس بالمورة ، ولما كانت هناك علاقات بين البنادقة وعمانوئيل فقد عقدوا تحالفا معه بصـــد روجر أسفر عن استرداد كورفو وهزيمة النورمانديين عند راس « مالى » واحتلال « أنكونة » سنة ١١٥١ ، وهكذا ازدادت مطامع عمانوئيل فى ايطاليا حتى تراءى لبعض رجال السياسة أن الحرب الرومية النورماندية ستصبح حربا أوروبية شاملة ، ولكن بابا روما تدخل لعقد معاهدة سلام لمدة ثلاثين سنة.

ولم يعبأ بتحالفهم مع الفرنج .. كذلك شدد النكير على من يجده فى بوادى الشام من جنود الأرمن المسلمين وفرسان الأتراك ونبالة الموارنة ، على الرغم من أنهم كانوا جزءا من محاربة أورشليم (١) .

وفى رجب من عام ١١٥٧/٥٥٢ وقع الزلزال العظيم الذى روع سوريا ودمر حصونها وقلع منشئاتها ، وفى زحام الناس الذين قتل منهم نحو عشرة آلاف ، راح أسامة يترقب أنباء شيزر وقد اتخذ – الى حين – كوخ خشب لمأواه هو وحرمه . ولم يمض الا قليل حتى نمى اليه أن بلده بجميع أمرائها المنقذين قد أضحت خرابا هى وحماة وكفر طاب والمعرة وافامية . ومن مهازل الأيام أن بنى منقذ يومذاك كانوا يحتفلون بختان ولد تاج الدولة ، فاذا القلعة المنيعة تخر أركانها ويقصف بعضها بعضا ، وتتكوم أخلاطا من الحجارة والغبار . ولم ينج سوى أم الطفل الذى أولم بختانه ، وهى الخاتون شقيقة شمس الملوك بورى بن طغتكين الذى كان فى ذات يوم صاحب دمشق .

وما كان أسامة يستطيع شيئا ازاء الكارثة المروعة ، حتى عندما سلمت شيزر لنور الدين محمود ، وساق الخاتون فى قيد ذل الى قصره أسيرة . اذ ذاك لم يجد سوى الدموع – وهو الجسور الذى لا تصرعه النوائب – وأفصح فى شعره عن شكواه وألمه ، وكان مما قاله :

ما استدرج الموت قومى فى هلاكهم
ولا تخرمهم مثنى ووحدانا

فكنت أصبر عنهم صبر محتسب
واحمد الخطب فيهم عز أو هانا

(١) قابل هذا بما يرويه عماد الدين الأصفهانى فى كتابه الفتح القسى فى الفتح القدسى ٧٤٢٥ . ليدن سنة ١٨٨٢ .

وأقتدى بالورى قبلى فكم فقـــدوا
أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا

لـكن سقيت المنـايا وسط جمعهم
رغمـا فخـــروا على الأذقان اذعانا

وفاجأتهم مـــن الأيام قارعـــة
ســـقتهم بكئوس المـوت ذيفانا

ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا
هـل ما ترى تارك للحين انســـانا

لم يترك المـــوت منهم مـن يخبرنى
عنهم فيوضـــح ما قالوه تبيـــانا

هـذى قصـــورهم أمست قبورهم
كذلك كانوا بهـــا من قبل ســكانا

ويح الزلازل أفنت معشرى فـــاذا
ذكرتهم خلتنى فى القوم ســـكرانا

لم يحمهم حصنهم منهـا ولا رهبت
بأســـا تبـادره الأقران أزمانا

ان أقفـــرت شيزر منهم فهم جعلوا
منيع أسوارها بيضـــا وخرصـــانا

بنو أبى وبنو عمى دمى دمهم
وان أرونى منـــاواة وشـــنآنا

يطيب النفس عنهـــم أنهم رحـــلوا
وخلفونى على الآثار عجـــلانا

والعجيب أن الملك الصالح بن رزيك انتهز هذه الفرصة فكرر دعوته اليه ، كأنه ظن أن هذا الفارس لن يستطيع البقاء قريبا من

موضع الكارثة ، فضلا عن رغبته الصادقة فى أن يقف بجانبه بعد أن شرع الفرنج يتجهون بمطامعهم الى مصر . وكانت مكاتباته له وأشعاره تكشف عن ود صادق ، ومما قال له يعزيه فى مصابه :

فاحتسب ما أصاب قومك مجد الد
ين واصـــبر فالحـــادثات ضروب

فـكذاك القنـــــاة يكسر يوم الر
وع منهـــا صـــدر وتبقى الكعوب

(١١)

فى مفترق الطرق

كلا لم تمت فيه سـورة المحارب ولم تضعف ، بل لا مندوحة عن الاعتراف بأنه ظل حتى هذه المرحلة من حياته الفارس الصياد الذى يستطيع أن يركض طول نهاره على جواده فلا يكل ولايمل ، وكان ـ مثل أبيه ـ يصرع بالجملة ما يريد أن يتصيده ويتكلف فى أثارة مرافقيه ما يملأ صدورهم بالوجل والعجب .

واننا لنخطىء تماما اذا نحن حاولنا أن نتخيل أبا المظفر على غرار ذلك الطراز الواهن من الشيوخ ، فهذا الذى يجرى على أن يصبغ شعره وفى الوقت نفسـه يتكلم عن الشيب لا يشبه فى شىء نمط متقدمى السن ذوى الرخاوة والوداعة ومن اذا قاموا هدهم الهرم وأعوزهم الى العصى . وكانت قدرته على المقاومة الجسدية فائقة ، فقد أصيب بجروح القنطاريات والجروخ (١) أربع عشرة مرة ، وفى مصر طعن وهو أعزل بالسيف طعنتين ، وفى وادى موسى رشق فيه نشاب ، ولما أثقل المرض نور الدين عام ١١٥٩ ـ حتى انه عين أخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل خلفا له ـ صم هو حتى ذكر الموت لكنه شفى وسيده .

(١) الجروخ : من أدوات الحروب أشبه بالمجانق ـ الى حد ما ـ وترمى النشاب والحجارة ، وينسب اليها الجرخية الذين حدثنا عنهم أسامة فى حصار حصن الصور بديار بكر مع « ملك الأمراء أتابك زنكى » يقصـد عماد الدين وذلك سنة ٥٢٨/١١٣٤ .

فأينما يكن ، وعلى أى نحو يتصرف ، وفى كل الظروف ، يبدو أبو المظفر أسـامة بن منقذ صحيحا مكتمل العافية بادى الفحولة مشدود الجلد . وقد ظل أكثر من نصف قرن كأبطال الأساطير ، وأكثر من ستين عاما واحدا من المرموقين ، وحتى الحلقة السابعة من عمره ـ وقد استهلها بتأديته فريضة الحج ـ لم يعرف الا فى أصحابه ذلك النوع من الاخفاق الذى يؤذن بالموت والمرء حى يرزق .

والى جانب ذلك ظل متوقد الذهن حاضر البديهة ، ماضى العزم ، حسن الرأى استشاره نور سنة ١١٥٩ ـ قبل مرضه ـ فيما ينبغى أن يصنع ازاء توسعات عمانوئيل البيزنطى فى شمالى سوريا بعد أن أعلن صاحبا أنطاقية وأورشليم ولاءهما له ، فأشار عليه بأن يتفق معه اتفاق سلام ويطلق بمقتضاه ستة آلاف أسير من الفرنج فى حلب ويتعهد له بأن يؤمن سير الحجاج النصارى فى أرضه (١) ولما أبدى نور الدين استياءه ذكره بصلح الحديبية وما نجم عنـه ، وان بدا فى نظر الكثيرين من أصحاب الرسـول تسليما للأعداء .

ولما مات بلدوين الثالث وتسنم عرش أورشليم أخوه أمورى ، أشار أسامة على نورالدين بألا يشغل نفسه بمناطحه قليج أرسلان الثانى سـلطان قونية ـ وقد أوقعه فيه عمانوئيل ـ وسرعان ما أكدت الأيام خطورة أمورى وقوة شكيمته .

وحقا لم يحك لنا فى مذكراته أنه حارب ، وكذلك لم تذكر المصادر التاريخية أنباء معارك خاضها . الا أن أبا شامة المقدس يؤكد فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » أنه اشترك فى حصار حارم سنة ٥٥٩/ ١١٦٤ وأبدى فنونا من الشجاعة التى

---

(١) قابل ذلك بما سجله ستيفنسون عن انتصارات عمانوئيل وخضـوع انطاكية والقدس لنفوذه الكبير Stevenson: Crusaders, P. 325.

لا مزيد عليها (١) . وقد اشترك فى هذه المعركة ـ التى انتهت بسقوط حارم وأسر بوهيموند الثالث صاحب طرابلس وجوسلان الثانى صاحب الرها ـ فخرالدين قرا أرسلان صاحب كيفا دار السلطنة فى ديار بكر ، وأعجب هذا الأمير به وحثه على الالتحاق ببلاطه .

واذ تنحصر فلسفته فى أن لذيذ العيش فى النقل ، رحب بدعوة فخر الدين ، غير أنه لم يذهب الا بعد أن استأذن نورالدين ، فكان من أكثر الناس ترحيبا بذهابه . واذا بدا ذلك غريبا فى أول الأمر فاننا يجب أن نقرر أن أسامة بدأ يراجع نورالدين فى بعض تصرفاته ـ وكان هذا يسخطه ـ ومن ناحية أخرى لم يعد يخشى من أن يكون يدا عليه عند أحد ، بعد أن ضعف تماما أبو الغارات طلائع بن رزيك أقوى منافسيه .

ومن الطريف أن أسامة نفسه الذى عوض بالكثير بعد أن ذهب بيته فى زلزال سوريا الذى دمر مسقط رأسه ، ومنح اقطاعا ضخما راح يندد بسوء ما يلقى فى كنف نورالدين ، وكان مما قاله (٢) :

---

(١) عندما كتب طاهر النعسانى عن وقائع أسـامة الكبار سجل له تلك الواقعة وكان كما يقول شجاعا للغاية ، ولما عاد الى حلب دخل مسجدها ـ وكان قد دخله فى العام الماضى سائرا للحج ـ وكتب على حائطه :

لك الحمـد يا مولاى كم لك منة	على وفضـل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العـام قافلا	من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى	مضى نحو ركب الله والركن والحجر
فأديت مفروضى وأسقطت ثقل مـا	تحملت من وزر الشبيه عن ظهرى

راجع أسامة بن منقذ ٢٣ .

(٢) رواية عمادالدين الأصفهانى على ما سجل ياقوت ، وذكر أن الشـعر كان فى غرض له عند نورالدين محمـود رحـمه الله ـ راجع معجم الأدباء ٥ : ٢٠٤ ط . دار المأمون باشراف رفاعى .

سلطاننا زاهد والنـــاس قد زهدوا
له فـكل عـــلى الخيرات منـكمش
أيامه مثل شهر الصـــوم طاهـرة
من المعاصى وفيهـا الجوع والعطش

اننا حريون بأن نحس التناقض وقد ظهر هذا الرجل قانعا غير قانع وراضـيا غير راض ـ ولكنا اذا حاولنا أن نجـاوز ظواهر الأحوال ونوجه أفكارنا صوب المستقبل وأهدافه التىتعود ألا يشير اليها جردنا تلك المرحلة من جانب كبير من أعراضـها ، وانتهينا الى أنه عرف « طاقة » نورالدين الحقيقية .

وفى أكثر من مرة عرض مع أحد شبان البلاط المرموقين ـ وهو صـلاح الدين يوسف بن أيوب ـ لما أداه نورالدين فى مواجهة الصليبيين وما يمكن أن يؤديه ، وانتهيا الى أنه طالما صرف النظر عن عمل حاسم فى « جمع » كلمة المسلمين والعرب فلا غناء فى صراعه مع هذا الافرنجى أو ذاك . وليس هذا بطبيعة الحال مما يغمط حقه من الاشادة والتقدير ، فان الشىء الذى لا شك فيه أنه دوخ أمراء الافرنج وملوكهم .

أجل ، وهذه الحقيقة ـ حقيقة نورالدين ـ لم يكن ينقصها من وجهة نظر أسامة أن يقرر أنه طالما افتقد الجرأة ، برغم أنهفى أحايين يبدو متهورا أو فى تهور المقدامين . فهو يقاتل الافرنج فى بلاد الأرمن بنـاء على طلب عمانوئيل ، ويرفض مقاتلتهم فى مصر لأنه كان يخشى طلائع بن رزيك ، على الرغم من أن هذا الوزير المصرى كتب الى أسامة أكثر من مرة يسأله أن يحرض نورالدين على فرنجة القدس :

قل له كم تماطل الدين فى الكفار فاحذر أن يغضب المطول
سر الى القدس واحتسب ذاك فى الله فبالسير منك يشفى الغليل
واذا ما أبطـا مسـيرك فالله اذن حسبنا ونعم الوكيـل

وقد اضطر أسامة بعد أن يئس من نور الدين ـ وكأنه شعر بأنه لا طاقة له على قتال ملك أورشليم ـ الى أن يكتب له :

يا أمير الجيوش يا أعدل الحـ كام فى فعله وفيما يقـــول
أنت حليت بالمـكارم أهـل الـ عصر حتى تعـــرف المجهول
وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ ن فهذا عان وهـــذا قتيل
بالغ العبد فى النيـــابة والتحـ ريض وهـــو المفوه المقبـول
فرأى من عزيمة الغزو ماكا دت له الأرض والجبال تميل
واذا عاقت المقـــادير فاللـ ــه اذن حسبنا ونعم الوكيل

ان الأشهر الأخيرة من السنوات العشر قضاها فى صحبة نورالدين محمود (٥٤٩ ـ ٥٥٩/١١٥٤ ـ ١١٦٤) كانت بالنسبة له بمثابة الزوال ، أو كانت تضع له النتيجة التى طالما تردد فى الأعتراف بها . وهى لن يتم طرد الفرنج من الأرض العربية التى توارثها الأمراء المسلمون على يديه !

واذن ففيم بقاؤه ؟

ولماذا لا ينتجع غيره ؟ واذن فلتكن رحلته الى ديار بكر التماسا لشىء جديد ، وحتى اذا بدا غير حكيم فى اختياره الجانب الأضعف ـ والمعروف أن قرا أرسلان أدنى من نور الدين بلا مشاحة ـ فانه ينبغى ألا يفرض نفسه على من لا ينتفع به ، وقد استبان تماما أن نور الدين استغنى عنه الى الأبد .

(١٢)

السـجن

فى الفترة التى كان أسامة فيهـا يعد عدته للرحيل ، توترت الأحداث فى مصر بخلع شاور ـ أحد أمراء الصعيد ـ لأبى شجاع العادل بن طلائع من وزارة الخليفة العاضد . ولما هبط هو كيفا هبطا ذلك الوزير دمشق هاربا من ضرغام الذى كان أميرا للبرقية ـ وهم فرقة من جند برقة ـ وطمع فى الوزارة ، لكنه عندما علم باستنجاد خصمه بنور الدين اتجه الى أمورى طالبا عونه .

وهكذا شهدت أيام أسـامة الأولى فى كيفا بديار بكر ما كان يحب أن يشـهده وهو فى بلاط نور الدين محمود . الا أن الزمن تأخر قليلا ، فكان عليـه وهو مشـغول بصيد الحجل والزرخ والأراوى ومعزى الجبل مع الأمير فخرالدين قرا أرسلان أن يتابع الحوادث من بعيد ، فيستثار عندما يعلم أن صديقه صلاح الدين الأيوبى يصحب عمـه أسد الدين شيركوه الذى كان يقود جنـد نورالدين الذاهبين الى نجدة شاور (١) . وسرعان ما تدفعه طبيعة المحارب الى الدخول فى مغامرة محلية وبكل ما اكتسبه من قدرة

---

(١) الطريف أن صلاح الدين كان حتى هذا الزمن ـ عام ١١٦٤ ـ أكثر ميلا الى العلوم الدينية منه الى العمليات العسكرية ، ولذلك قبل صحبة عمه بعد تردد ـ راجع تاريخ أبى الفداء ٣ : ٤٧ والروضتين : ١ : ١٥٥ وكامل ابن الأثير ٩ : ٩٩ .

على التدبير والكيد يغرى قرا أرسلان بغزو آمد التى كان يعلم أنها محط نظره ومناط أمله .

وكان أبو المغيث بن منقذ أخو أسامة موجودا اذ ذاك فى آمد ، فأطلعه على تحصيناتها من أبراج وأبواب وآلات دفاع . كما وقفه على طبيعة الحياة فيها والأسلوب الذى كان يحكمها به الأمير كمال الدين على بن بيسان ، ونقل هذا كله أسامة الى سيده الجديد . ولكن كم كان فزعه حينما أعفاه من خوض المعركة ووكلها الى غلامه ياروق الافرنجى برغم غضب الجند عليه لسوء خلقه .

ويحدثنا أسامة عن الاخفاق الذى منيت به الحملة بقوله ان الأمير قرا أرسلان اعتاد أن يقوم بعمليات عسكرية فى آمد ولا يبلغ منها مقصوده ، وكان آخر عمل عليها أن أميرا من الأكراد كان مديونا بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه ، وقرر الأمير أن يصله العساكر فى ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد. فعول فخر الدين فى ذلك المهم على خادم له أفرنجى يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه . فركب فى بعض العسكر وتقدم ، وركب باقى الأمراء فتبعوه . وتوانى هو فى السير ، فسبقه الأمراء الى آمد . فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردى وأصحابه من برج ، ودلوا اليهم الحبال وقالوا « اطلعوا » ما طلع منهم أحد ، فنزلوا . كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » ما دخلوا ، كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبى جاهل فى هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار .

انه كعادته يبعد نفسه عما يثير الشك فيه ويورطه فى الظنة ، ولابد انه راح يتجرع كأس المرارة حتى الثمالة . وضاعف من أحزانه غياب أميره فخرالدين ، فقد قضى نحبه سنة ١١٦٦/٥٦٢ . والعجيب أن مصر كانت فى ذلك الحين تتعرض لحملة نور الدين الثانية بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ووافق

وصولها وصول الافرنج . وبينما عسكر هؤلاء قرب الفسطاط نزل شيركوه فى الجيزة ، لكن رحى الحرب لم تدر الا قرب المنيا فى البابين . واضطر شيركوه الى أن يزحف خلال الصحراء الى الاسكندرية ويستولى عليها ، ثم يعين عليها صلاح الدين واليا فيحاصره الافرنج ، وينتهى الأمر برحيل جيشى نورالدين وأمورى .

ولا ندرى ماذا كان وقع الأنباء على أسامة وهو فى تلك الأرض البعيدة عن ساحة الصراع . لكن ظروفه تؤكد أنه كان فى تلك الآونة فاتر الهمة نحو أى شىء سوى شئونه الشخصية ، ذلك أن نورالدين محمد بن قرا أرسلان ـ أمير ديار بكر الجديد ـ كان لا يظهر له الاحترام ولا يوليه التقدير اللذين يستحقهما ، وأى صفة مشتركة عساها توجد بينهما وأحدهما شيخ ليس وراءه الا المتاعب والآخر حدث يرى من الأفضل مصاحبة الأحداث ؟

ولما عاد أمورى فبعث بقواته الى مصر للاستيلاء عليها فى غفلة من نورالدين محمود حتى اضطر شارو الى اضرام النار فى الفسطاط وبعث العاضد يستنجد بصاحب الشام ، كان أسامة ينعى أيامه الخوالى ويتسخط على الحظ العاثر الذى أقعده عن العمل الحاسم فى هذه المرحلة من تاريخ المسلمين .

واذ يكون عليه أن يختار أحد طريقين لا ثالث لهما : اما القعود فى كيفا على الضيم برغم مخالطته للأدباء والنساك والفقهاء من أمثال الخطيب مجدالدين موسى بن الخطيب قدوة الشريعة يحيى الحصكفى ، واما الرجوع الى دمشق ، يبلغه نبأ استيلاء شيركوه على مصر سنة ١١٦٨/٥٦٤ وتعيينه وزيرا للعاضد بعد قتل شاور ، وعقب هذا بشهرين أو فى رمضان من العام نفسه يموت شيركوه فيعين العاضد ابن أخيه صلاح‌الدين خلفا له فى الوزارة .

وهكذا تدور الأيام ويصبح الشاب الذى يبلغ الثلاثين والذى طالما جلس الى أسامة فى دمشق وبعلبك سائلا ومتعلما وسامعا الى شعره وأخبار بطولاته ـ يصبح هذا الشاب من دون الناس جميعا فى المركز الذى لا ينكر أنه فكر فيه أحيانا ، مركز الوزير فى دولة كبيرة كمصر .

واها لتلك الأيام الماضية التى كان فى وسعه أن يفعل شيئا ! وأما اليوم فهو سجين فى كيفا دائما ، وان أبعد زار ميافارقين ، فاذا أراد أن يغرق نفسه فى القراءة نزل آمد وتقلب مع ألف ألف وأربعين ألف مؤلف فى مكتبتها الضخمة ، والأمر على أى حال لم يكن فى غاية السوء ، بل ربما كان على العكس من ذلك تماما ، والا فكم كسب من مغامراته ورحلات قنصه اذا قيس بما كان يضع فى تلك الفترة من كتب عرف بها فيما بعد ؟

انه هو نفسه لم يكن راضيا ، ولكن الذين كتبوا عنه يجمعون على أن أيام ديار بكر العصيبة هى التى خلدته فى التاريخ ، ففيها وضع أشهر أربعة كتب له قبل أن يتصل بالقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب المعروف ويهديه « كتاب العصا » . وهذه الكتب هى « لباب الألباب » أو معظم فصوله و « تاريخ القلاع والحصون » ويتضمن الحوادث الى سنة ٥٦٦ و « التاريخ البدرى » جمع فيه أسماء الأبطال الذين شهدوا بدرا ورصد أخبارهم و « البديع » الذى دأب على التفكير فيه منذ أيام شيزر حتى أتمه فى ديار بكر (١) .

---

(١) ليست هناك تواريخ قاطعة تبين السنة التى كان يفرغ فيها أسامة من اى كتاب ، ومن ناحية أخرى كان من عادته أن يعود الى مؤلفاته بالزيادة والتنقيح . فبينما نقرأ على « لباب الألباب » أن الفراغ منه كان فى صفر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، نقرأ أيضا بخط ابنه مرهف ما يلى :

كتاب لباب الألباب

تأليف أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر بن منقذ =

حقا وضع عدة كتب قبل ذلك ومن بينها « التجائر المربحة والمساعى المنجحة » و « أخبار النساء » و « النوم والأحلام » الا أن هذه ـ وثمة غيرها ـ لا تبلغ ما بلغتها الكتب الأربعة الأولى.

= الكنانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين جبانى مولاى والدى مجد الدين مؤيد الله وفقه الله بهذا الكتاب الذى هو من تأليفه بدمشق المحروسة فى شهور سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ـ وكتبه ولده مرهف بن أسامة حامدا ومصليا .

وقد حرص أحمد محمد شاكر محقق الكتاب الذى نشره سنة ١٩٣٥/١٣٥٤ على أن يشير الى اضافاته وتفتيحاته مقرا بأن اسامة انتهى من الكتاب قبل وفاته بنحو خمس سنوات .

وفيما مضى من سيرته نحس أنه كان مشغولا بالبديع فلما فرغ منه . وسماه « البديع فى نقد الشعر » مقسما اياه الى خمسة وتسعين بابا لم يحدد تاريخا ما ولم يعن ناسخه الا أن يحرر تاريخ الانتهاء من نسخه فقط وهو سنة احدى عشرة وسبعمائة ، وعجز محققا الكتاب الدكتوران أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد عن الادلاء بأى رأى فى هذا الموضوع ، وبالمثل « كتاب العصا » الذى نشره عبد السلام هارون فى سلسلة « نوادر المخطوطات » سنة ١٩٥١/١٣٧١ فاننا لا نجد فيه أى تاريخ وان كنا نعلم أنه جرت بينه والقاضى الفاضل كتابات عنه وذكر فيه حوادث وقعت بعد سنة ١١٧١ منها طلبه عصا آبنوسية من ابنه مرهف وهو بمصر مع الناصر صلاح الدين (صفحة ٢١٤) وذلك بشعر منه :

أريد عصا من آبنوس تقلنى ... فان الثمانين استعادت قوى رجلى

ومما هو جدير بالذكر أن أغلب مؤلفاته يغلب عليها الطابع الذاتى ، ففضلا عن أنه يضمنها شعره الذى كان حفيا به ـ وفى العصا وحده تسعون بيتا زائدا على شعر ديوانه ـ فهى غنية بما عرض له فى حياته من أحداث ، وربما الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة العامة ـ فى حدود ما ظهر من نتاجه حتى الآن ـ هو كتاب البديع ، فان الموضوعية هى ميزته الأولى ولم تكن مع ذلك مما رفع من شأنه ، فقد أقر بأنه لم يدع ابتداع شىء فيه وحسبه فضيلة الاتباع .

والدليل على ذلك أنه طالما عاد اليها منقحا ليدخل على عباراتها من التحسينات البيانية ما يكشف عن رغبته فى أن تكون « شيئا » عند الناس . والمدهش أن الذين اطلعوا عليها وقرأها هو لهم كانوا يشيدون بها اشادة معجبيه بالبطولات التى سجلها فى أيام فتائه وعنفوانه .

غير أنه كان ينصرف عن الجميع الى متابعة أخبار الوزير الشاب الذى ملك مصر ، وراح هو بشعره يشجعه على أن يطارد قوات أمورى ويصل الى فرنجة الشام ، ثم جرؤ فى عام ٥٦٧/١١٧١ على ازالة الخلافة الفاطمية واعادة مصر الى حظيرة الخليفة العباسى فى بغداد ، وكان مما كتبه :

تهن يا أطول الملوك يدا
فى بسط عدل وسطوة وندى

أجرا وذكرا من ذلك الشكر فى الد
نيا وفى ذلك الجنان غدا

لا تستقل الذى صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا

وجست أرض العدا وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا

وما رأينا غزا الفرنج من ال
ملوك فى عقر دارهم أحدا

فسر الى الشام فالملائكة ال
أبرار تلقاك ملتقى حمدا

فهو فقـــير اليـــك يأمـــل أن

تصلح بالعـدل منــــه ما فســدا

والله يعطيـــك فيـــه عاقبـة النـ

صر كمـــا فى كتـــابه وعـــدا

فما حبـــاك الورى وألهمـــك الـ

عدل واعطـــاك ما ملكت ســدى

(١٣)

سلطان وصاحب ضيعة

في شوال من سنة ١١٧٤/٥٦٩ مات نورالدين محمود فخلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل (١) ، وكان أسـامة اذ ذاك قد بذل قصاراه عند صلاح الدين الأيوبى ليدعوه اليه فى مصر . ولكن من حوله كأخيه شمس الدولة وصديقه الخصى الرومى بهاء الدين قراقوش حذروه من غضب المصريين عليه ــ أفلم يتآمر عليهم يوما واتهم بقتل أحد خلفائهم ــ فقنع بمصاحبة ابنه العضد أبىالفوارس مرهف ، وترك الأب الذى قارب الثمانين فى أسوأ حال حتى تمنى الموت فقال :

لا تحسدن على البقاء معمرا   فالموت أيسر مايئول اليـه

واذا دعوت بطول عمر لامرىء   فاعلم بأنك قد دعوت عليـه

ولحسن حظه ــ وقد بدا أنه مجدود برغم كل شىء ــ وقع الصدام فى دمشق بين المتنافسين على امتلاك الأمر من الملك الصالح اسماعيل الذى كان فى الحادية عشرة ، حتى اضطر أحـدهم ــ وكان اسمه شمس الدين بن المقدم ــ الى أن يسترضى بالمال الافرنج ، فاضطر صلاح الدين بعد القضاء على فتنة عمارة اليمنى ــ الشاعر الذى يعرفه أسامة وأراد ارجاع الفاطمية فى عمليات أعانه عليها الفرنج والحشاشية ــ الى الزحف على الشام ، وتمكن

(١) ابن الأثير ٩ : ١٢٤ ، أبو الفداء ٣ : ٥٥ .

من الاستيلاء على دمشق فى الحادى عشر من جمادى الأول عام ١١٧٥/٥٧٠ ثم أعقبها بحمص فحماه فشيزر .

وكان على أسامة أن ينتظر الكلمة الفاصلة ، فها هو ذا صلاح الدين الأيوبى يحاصر حلب ، فيستنجد أميرها بريموند الثالث صاحب طرابلس وبسيف الدين غازى صاحب الموصل وبالحشاشين الذين كاد أحد أفرادهم أن يفتك به (١) .

وفى هذه الأثناء وخلال فترات الراحة بين المعارك ، كان مرهف يكلم الأيوبى فى شأن أبيه ، وتمكن فى نهاية الأمر من أن يحصل منه على دار وضيعة قرب المعرة .

وفى اللحظة التى كان ينادى فيها بصلاح الدين الأيوبى سلطانا (٢) على الشام ـ بتفويض من الخليفة العباسى ـ كان أسامة يتوج أميرا على ضيعته وينظم غلمانه وعماله فيها . والتقى الصديقان القديمان فى دمشق ولا يزال الحصار مضروبا على حلب ، وقوات السلطان تستولى على منبج واعزاز ، ولم يكن بد من أن يشيد العجوز بهذه « المنة » ويذكر ذلك « الفضل » الذى طوقه به سلطان الاسلام والمسلمين .

ولقد سجل هذه الآونة فى مذكراته بعد ذلك بعشر سنوات ، وأقر بعد طول تردد أن الحظ ابتسم له بعد أن قطع أسبابه من أسباب الأمراء والسلاطين ، وما كان له الا أن يعترف !

أعجزنى وهن السنين عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم وقطعت أسبابى من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ،

---

(١) راجع هنا الحاشية رقم ٥ وابن الأثير ٩ : ١٣٠ وتاريخ أبى الفداء ٣ : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) يحسن مراجعة Kramers: art. Sultan, Enc. of Islam. ومفرج الكروب لابن واصل ٢ : ١٠٢ وما بعدها .

ورددت عليهم ماخولونى من نعمهم . لعلمى أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم . وأن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير . ولزمت دارى وجعلت الخمول شعارى ، ورضيت نفسى بالانفراد فى الغربة ومفارقة الأوطان والتربة الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها ، وصبرت صبر الأسير على قده والظمآن ذى الغلة عن ورده .

فنادانى اليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ، جامع كلمة الايمان قامع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيى دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب . جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه وأيدهم بماضى سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله كما أصفى لهم من الأكدار موارد فضله . وأنفذ فى البسيطة عالى أوامره ونواهيه ، وحكم صوارمه فى أعناق أعاديه . برحمة نقبت عنى فى البلاد ودونى الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لا مال لدى ولا أهل .

فاستنقذنى من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملنى الى بابه العالى بانعامه الغامر الجزيل . وجبر ماهاضه الزمان منى ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من علو سنى . فغمرنى بغرائب الرغائب ، وأهنأنى من أنعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لى بفائض الكرم ، فأسلفت سواه من الخدم . فهو يعتد لى بذلك ويرعاه ، رعاية من كأنه شاهده ورآه . فعطاياه تطرقنى وأنا راقد ، وتسرى الى وأنا محتسب قاعد . فأنا من انعامه كل يوم فى مزيد ، واكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل العبيد .

أمننى جميل رأيه حادث الحادثات ، وأخلف لى انعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات . وأفاض على من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته ما يعجز الاعناق عن حمل أسر منته . ولم يبق لى جوده أملا أرجو نيله أقضى زمانى بالدعاء به نهاره وليله .

ويحدثنا عمـــاد الدين الأصبهانى فى الأديب الكاتب المؤرخ ــ الذى عمل فى بلاط نور الدين فلما مات لزم صلاح الدين ــ أن السلطان كان يستشيره فيما يلم به ويستنير برأيه فى غياهبه ، واذا غاب عنه فى غزواته كاتبه وأعلمه بوقعاته ، وكان يطيل النظر فى ديوانه ــ وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف ــ لا سيما طائيته لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها (١) !

ويعترف العماد الأصبهانى بأنه طالما سمع بأسامة حتى كان يتمنى أبدا لقياه ويشيم على البعد حياه الى أن لقيه فى صفر سنة احدى وسبعين وخمسمائة (١١٧٦) وأنشده لنفسه ــ بعد أن سأله عن سنه ــ البيتين اللذين سارا له فى قلع ضرسه :

وصـــاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفعى ويسعى سعى مجتهد
لم ألقـــه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظـــرى افترقنـــا فرقة الأبد

وأكد الظن أنه هو نفسه الذى عرفه بالقاضى الفاضل ، وزير صلاح الدين فى مصر ــ وكان هذا قد توسط للعماد فى أن يسند اليه السلطان ديوان الانشاء بدمشق ــ فارتبط الثلاثة برباط لم يضعف منه فارق السن . وقوت تلك العـلاقة مابين أســـامة وصلاح الدين على رغم غيابه المتكرر عن دمشق ، لأنه كان يوزع أيامه فى سوريا ومصر بين مناهضـــة الفرنجة ومطـــاردة الثوار واستنهاض الهمم وترتيب المؤن والامداد .

---

(١) معجم الأدباء ٥ : ١٩٣ تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٢٧ ومع ذلك فان أسامة قال فيه :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره   لرماه نقع جيوشه بالغيهب

ويجب أن نذكر أن ديوان اسامة الذى كان فى حوزة صلاح الدين رآه ابن خلكان فى جزأين وبخطه ونقل منه ــ وفيات الأعيان ١ : ١٧٥ .

ويحكى العماد أنه وأسامة اجتمعا عند الملك الناصر صلاح يوسف بن أيوب بدمشق (١) وكان يلعب بالشطرنج فقال أسامة للعماد :

ـ ألا أنشدك البيتين اللذين قلتهما فى الشطرنج ؟

فقال :

ـ هات . . .

فأنشد :

أنظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلا لها وما فيها

كما يحكى أنه سأله يوما أن ينجز له مطلوبا عند السلطان ، فلما أبطأ عليه كتب اليه يستحثه :

عماد الدين مولانا جوا مواهبه كمنهل السحاب
يحكم فى مكارمه الأمانى ولو كلفته رد الشباب
وعذرك فى قضا شغلى قضاء يصرفه فما عذر الجواب

وما من شك فى أن أسامة الذى قنع فى نهاية المطاف بضيعته ودار المعرة ودار أخرى فى دمشق لم يكن يجد حرجا أن يثقل على صلاح الدين بمطالبه وكان هذا يجيب حاجته مقدرا له تاريخه الطويل فى المعارك من ناحية ومنتفعا بآرائه فى « الوضع » السياسى للبلاد من ناحية أخرى . والحقيقة أن صلاح الدين كان يعترف بأن أسامة من أول الذين نبهوه الى أقصر طريق للقضاء على الافرنج. وقد رف قيمة أن يكون هو على رأس مصر ، ثم يدعو الى الاتحاد

(١) معجم الأدباء : ٥ : ٢٠٤ .

الذى تذوب فيه النعرات ولا يبقى الا الشعور بحب الأرض التى درج العرب عليها بالاسلام .

وعندما جلس يكتب كتابا فى أخبار أهله أعلن أنه يريد أن ينتفع به السلطان وتلقى صلاح الدين هذه اللفتة منه بالتقدير . فوجد هذا أن كل ما بذله على مدى السنوات الطوال لم يضع هباء ، وأن المرء فى واقع الأمر مجموعة أعمال فقط .

واذا مادعمت تلك الأعمـال بالفكرة النبيلة وشفعت بالتقوى وخير المسلمين ، فلا خوف على أحد فى أرض النبوة والرسالات . وانه ليؤمن بالغد ، ما كان له هذا السلطان ، وما كانت الأيام تحمل له من الطوالع السعد ما يمكنه من أعدائه وشانئيه .

(١٤)

بين الشعر والسياسة

كان لبيت أسامة فى المعرة مسجد يجلس فيه اليه ـ ما كان السلطان صلاح الدين والعماد الأصبهانى بعيدين عن دمشق ـ طلاب علمه وأدبه ، وكثيرا ما عرض عليه هؤلاء أن يتخذ لنفسه حلقة تدريس فى الجامع الأموى ، وعلى هذا شجعه ابن عساكر . وقد اعتذر هو بتقدم سنه ، وبأن هناك من أولى منه بالتدريس وبأن التصدى للعلم مهنة لم يخلق لها ، فضلا عن أنه مشغول بأخبار المعارك التى يخوضها السلطان فى الجبهتين الداخلية والسياسية .

وعلى الرغم من أنه كان يعتد نفسه معفيا من العكوف على التلقين والارشاد فانه لم يعدم طلاقة اللسان وحلاوة البيان ، وظل أقدر من الكثيرين على استلاب الأفئدة واستهواء النفوس . ولقد لفت الى هذا السمعانى فى تاريخه ، وتكفل باشاعة مادته العماد حتى انه اختفى بكل شعره الذى أورده بنتف أخباره ، وكثيرا ما أثاره على أن يعيد انشاءه والتعليق عليه .

وربما كانا اذا اجتمعا بدءا حوارهما فى السياسة ـ فان الموقف العام صعب ودقيق ـ وذهب أسامة بصوته يبحث عن اجابات الأسئلة التى تريد أن تحدد طبيعة المعركة ، غير أن العماد يستدرجه برفق الى الأدب ولفته حتى لقد اضطره الى أن يسأله ذات يوم :

ـ أما يمنع من أن أسأل عن أقوام المسلمين يا أبا عبد الله ؟
وعندما أجاب بقوله :

ـ بلى والله ..

قال :

ـ خبرت الحياة حتى يخيل الى أنى لابد أن أسمع السلطان صوتى دائما ، فما يمنعنى من الكلام ؟

ولم تكن هناك اجابة عن تساؤله ، وانما كانت الحوادث أكبر من أن نتوقف عند مجرد ابداء الرأى وازجاء النصح . ان الظروف هى التى تملى على السلطان أن يتحرك ، فهو قد ينتصر فى سنجار وآمد وتل خالد عام ١١٨٢/٥٧٨ ولكن هذا لا يعنى انه تخلص من مشكلات الأمراء المتصارعين . بل انه عقب استيلائه على حلب نفسها صرح بأن مواجهة الافرنج عملية لا تزال فى علم الغيب ، لأن هناك مشكلات الموصل وبلاد الأرمن (١) .

ولقد ظن أسامة عندما أقسم صلاح الدين فى العام نفسه على أنه لن يعود من الشام الى مصر حتى يفرغ من كل شىء أن المعركة الفاصلة اقترب ميعادها الا أن أمله سرعان ما خاب وهو يرى الصعوبات تعترضه وتجبره على الريث والتلكؤ .

وهكذا كان عليه أن يصبر ولم ينقطع عن العمل فقد أملى لباب الألباب عام ١١٨٣/٥٧٩ فى واحد وعشرين كراسة وأهداه لابنه مرهف وأن يقول فيما بينه وبين نفسه انى لأنحى بالملامة على نفسى اذا عن لى أن أتعجل السلطان فيما لم يقدر الله أن يكون . لقد فعل ما يوجبه العقل ليحيى سنة الخلفاء الراشدين ويقيم أولا عمود الدولة والدين ، على أنه لا تزال الأمة من سيوفه فى حمى منيع ومن انعامه فى ربيع مريع . واذا كنت لم أدخر شيئا يحتاج

---

(١) ابن الأثير ٩ : ١٥٤ ، ١٥٥ وأبو الفداء ٣ : ٦٤ وما بعدها .

اليه ، فانى أرجو أن يبقى الله على لأشهد ما يقدمه الذين يحتاج هو اليهم ليكف بسطه يد المعتدى الآثم ويكشف عن البـــلاد ظلم المظــالم .

أكان هذا يأسا ؟

انه لم يكن يدرى ، ولكنه حين زاره العماد فى سنة ١١٨٥/٥٨١ بعد غياب أشعره بالملل والسقم وقال له :

ـ سلطان المسلمين يركب المهالك حتى انى أخشى أن يموت . .

قال :

ـ الحرب لا تقتل ولكن يقتل القعود والنفس تسترجع فيه ما قالت منذ أعوام :

مــع الثمــانين عاث الدهر فى جلدى
وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى

اذا كتبت فخطى جـــد مضطـــرب
كخط مرتعش الكفـــين مرتعـــــد

فأعجب لضعف يدى عن حملهــا قلما
من بعد حطم القنا فى لبه الأســـــد

وان مشيت وفى كفى العصـــا ثقلت
رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجـلد

فقـــل لمن يتمنى طـــول مـــدته
هذى عواقب طول العمـــر والمـدد

قال العماد :

ـ يعجبنى الشعر يا أبا المظفر ولكن كيف لا تقتل الحرب ؟

فأجاب :

– ربما قتلتك ضحكة أو أكلة أو نومة ، فلماذا لا تذكر هذا يا أبا عبد الله ؟ لا والله .. فما أريد أن تخشى على السلطان وتقول أن الموت يقدمه ركوب المخاطر أو يؤخره شدة الحذر ، ففى بقائى أوضح معتبر . فكم لقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام والجروخ وأنا من الأجل فى حصن حصين الى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء كما قال صلى الله عليه وسلم « كفى بالصحة داء » فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ماهو أصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك فى كفة الجيش أسهل من تكاليف العيش .

وصمت أسامة وعيناه تدمعان ، فقال العماد :

– هون عليك أيها الأمير الجليل .

فقال أسامة :

– أتقول انى أمير ؟ والله لقد استرجعت منه الأيام بطول الحياة كل محبوب اللذات ، وشاب عنده كدرب النكد صفو العيش الرغد .

قال العماد :

– أذلك والسلطان حى وأنا معك يا أبا المظفر ؟

فقال :

– هيهات يا مولاى فقد صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ودخل منى الكبر بعضى فى بعض ، حتى أنكرت نفسى وتحسرت على أمسى وقلت فى وصف حالى :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردى

وأنا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة ، وما كان أعجل تقضيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهرى كيف عودنى
بعد المشيب سوى عاداتى الأول

قال العماد :

ـ والله لا أدرى أمأخوذ أنا بأن تفتنت وقد عهدتك المقدام العنيد تفتن فى فنون الشعر والنثر مافيه زاد المستزيد ؟

فقال أسامة :

ـ كل مافى الأمر يا أبا عبد الله أنى ظننت أن الزمان لا يبلى جديده ولا يهى شديده ، ومع ذلك فقد استخرت الله فى كتاب جديد شرعت فيه على نحو قريب مما فعلت فى كتاب المنازل والديار ، لكن الدافع فيه ليس تلك الزلازل التى أفنت معشرى فأقفرت شيزر منهم حتى اليوم

فتساءل العماد :

ـ فما هو ؟

فأجاب :

ـ فى حياتى أنا كل ما أريد وفيها تجد الأمثولة يا أبا عبد الله ، ولهذا أزمع تسمية الكتاب بالاعتبار ، ولن أقصره على وصف أيامى فى بقعة واحدة من الأرض أو فى صقع من الأصقاع وهكذا فعلت فى المنازل والديار واصفا اقامتى فى كيفا ، وانما أمده على أيامى كلها وقد توغلت ذروة التسعين ليكون أروع وأجمع :

قال العماد :

— سأكون أول قارىء له يا أبا المظفر ان شاء الله ، ولكنك مادمت تخوض فى نحو ما تخوض فيه فهلا أنشدتنا فى الشيب معنى مبتكرا ؟

قال أسامة :

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
أرضيته وتركت خدى شائبا
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا
ورأى النهى بعد الغواية صاحبى
فتنى العنان يرفع غيرى صاحبا
وأبيه ما ظلم المشيب وانه
أملى ، فقلت عساه عنى راغبا
أنا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له أيدى الصباح ذوائبا

وكان هذا ايذانا بالخلوص الى الشعر ، فراحا يهيمان مع الخيال متذاكرين أقوال المبدعين من الشعراء . وعندما تناشدا بيتا للوزير المغربى فى وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذى تخترقه الرياح ، قال أسامة وكأنه يريد التنبيه على فضله :

— لقد شبهت القلب الخافق وبالغت فى تشبيهه وأربيت على قول المغربى فى قولى من أبيات هى :

أحبارنا كيف اللقاء ودونكم عرض المهامة والفيافى الفيح
أبكيتم عينى دما لفراقكم فكأنما انسانها مجروح
وكأن قلبى حين يخطر ذكركم لهب الضرام تعاورته الريح

فقال العماد :

ــ صدقت فان المغربى أنشد :

كأنى قلبى اذا عن أوكاركم ظل اللواء عليه الريح تخترق نقصد تشبيهـــه خفقـــان القلب وأنت شبهت القلب الواجب باللهيب وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه لتعاور الريح ، فقد أربيت عليه.

ثم تذاكرا ماقاله من شعر عندما بلغ الأربعين ، فعلق العماد بقوله انه وان اعتمد فيه ابن الرومى وأبا فراس ، فانه كان أبلغ منهما فى المعنى ثم استنشده الكثير من أشعاره القديمة وهو يعمد الى صرف همته عن الأسى وثقل السنين وعبء القتال ، الا أنه قال له وهو يودعه :

ــ لا تنسى أن تبلغ سلطان المســـلمين أنى أدعو له بالتوفيق وسأظل أتحرى خطاه حتى يكتب له النصر باذن الله .

(١٥)

الشـــيخ المنـــكوب

عندما اشتدت عليه وطأة الاحساس بالفراغ وجد أن لا مفر من القعود للتدريس فى المدرسة الحنفية بدمشق ، وكان يعنى فى محاضراته بالبديع وبخاصة ما يرد فى شعر مســـلم بن الوليد والطائى وابن المعتز . وقد حضر درســـه مرة أو مرتين كل من القاضى الفاضل والعماد الاصبهانى ، وأكثر من مرة ابنه الحبيب مرهف جليس السلطان ونديمه وكلمته هو عنده ووسيلته اليه .

انه لا يزال يتدفق حيـــاة برغم شـــكاته التى لا تنتهى من « انهيار » قواه ، وعندما يردد بيته الذى أصبح علما عليه :

ولست أرضى بلوغ المجـد فى رفه

ولا العلا دون حطم البيض والأسل

ثم يعقب بقوله انه خدع بوعد المطـامع حتى وجـد كل شىء كالسراب اللامع ، كان العماد أو حتى أى سامع له يقول :

ــ الشكر لله على أن مازلنا نجالس اليك ..

الا أنه يرفض الاقرار بذلك ، وترجـع به ذاكرته القهقرى فيجد الفارق كبيرا بين ماكان أمس وما هو اليوم ، فينهض بقامته المديدة ويدفع عمامته عن رأس أصلع ويقول :

، ــ هذا هو أبو المظفر مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد لم يدر الا اليوم أن داء الكبر عام يعـدى كل من أغفـله الحمام .

ثم ينطلق يتحدث دون انقطاع ، وفى خلال حديثه يقحم الكلام عن السأم والقلل بين الحينة والحينة . بينما يوجه النقد اللاذع الى حلب التى لا تريد أن تسلم للسلطان ، والى الحشاشية الذين أساءوا للاسماعيلية أو للأمامية وفتوا فى عضد المسـلمين . وفى الحق كان ذلك الشيخ الذى يرى أن الأمراض .. اصطلحت عليه يلقى القول فى عصبية حتى ليظن الظـانون أنه يخبط ويخلط ، وما درى أحد أنه كان يستبطىء صنيع السلطان بينما نهايته هو تقترب .

ولما حمل اليه ابنه نبأ استسلام حلب سنة ١١٨٣/٥٧٩ قام اليه فعانقه وراح يقول :

ــ لم تبعد الا الموصل ، لكن هــذه أمرها هين .. قل لى ياعضد الدين كم يبقى على لقاء السلطان بالكفار الملاعين ؟ انهم لن ينتصروا عليه كما انتصروا فى عسقلان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .. أنا لا أنسى هذا التاريخ ، فقد كنت فى اقطـاعى بالمعرة أراجع لباب الألباب .. لا شك أنك قرأته وأطلعت السلطان عليه ، ان القاضى الفاضل مد الله فى عمره ذكر لى أنه قرأ كتاب العصا عليه فسأله عن أخبار النساء الذى تردد فيه ذكره ..

ويلتقط أنفاسه أو يمسح على لحيته البيضاء الذى يحرص على تشذيبها ، ثم يستطرد :

ــ قل لى يا أبا الفوارس متى أذهب للقاء السلطان ؟ اننى أريد أن أقول له يقذفها بالمجانيق ويقطع عنها المبرة .. ألا تدرى أن أبراجها تلتقى انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض وقلعتهـا

قد رحل بناؤها رضا وينتظمها سور عتيق فما تستسلم هـذه الا بالمجانيق ؟

ويعدل الى ديوانه الذى كان يضيف اليه فينشد له ما يعن له منه ، ثم يتذكر أدواءه ويتساءل :

ـ كم عمرك يا أبا الفوارس ؟ أنت أكبر من السلطان بثلاثة عشر عاما .. أنا أعرف .. أظنك قد قاربت الستين ثم لا تشكو ألما ، أفلا ترى أن صحتي لا يسعفها الا وجودك معى ومخالطة الأصحاب لى ؟ اننى أضيق بهذه الحفنة من التلاميذ الذين فقدوا القدرة على التفكير .. اننى أسجل فى الاعتبار أن خير المثولة حسن التدبر بالعقل ، ولعله يثير دهشتك أنى أحاول منح السلطان ذلك دون أن تخدعنى الفتنة ، فأنا دائما أقول التواضع يا أبا المظفر التواضع ..

واذا كان على ابنه أن يتدبر هـذا القول الذى يبدو مفككا متخاذلا ، فما ذلك الا لأنه يبغى أن ينبهه الى ما قد يزلق به لسانه بعد ما خرج أحد طلابه من الشافعية يقول :

ـ والله ان مولانا الشيخ أمامى لكنه يدارى عن منصبه ..

ثم أيده بعض زعم أنه اعتاد أن يرفد الشيعة ويخلصهم من أدران الحشاشين الذين ملأوا الشام فسادا .. ولعله اطمأن الى أن أباه لم يفقد بعد القدرة على املاك ناصية أمره ، وأرجع انطلاقه فى الكلام الى ما طبع عليه من حيوية وحماسة لا تزالان تملكان عليه بيانه ، غير أنه قال له :

ـ أريدك يا مولاى أن تكون زينة القوم ، وأحذر الوشاة منهم ينقلون عنك الى السلطان ما يغضبه عليك وأنت صنيعته ..

على أن أسامة لم يفزع لهذه الايماءة التى كانت بمثابة انذار له ، فالفكرة التى جعلها نبراسا لحياته كانت واضحة وضوح الشمس.

فقد صح عزمه على أن ب شر بالخطوة التالية التى لابد للسلطان من أن يقطعها ، وهو اذا كان قد فقد القدرة على أن يتحرك بالسيف فلا يزال قادرا على الكلام فى سبيل توحيد القوى الاسلامية ضد الفرنج .

وفجأة دقت ساعة الخطر المؤذنة بزوال ممالك الافرنج ، فقد خضع صاحب الموصل للسلطان ، وبدأ أن الحاق العراق الأعلى بسوريا ومصر هيأ للغاصبين سجنا من الصعب التخلص منه الا بالموت .. كم أتت سعادة الشيخ عندما بلغه أنه قد آن الأوان لحرب الخلاص المقدسة ، وأما هذه الأقوام التى أنضوت تحت راية صلاح الدين - وفيها العرب والترك والمغاربة والفرنج - فلم تكن الا القوة التى يبطش بها والتى تقدر فعلا على البطش ما كان يوجهها واحد .. كالناصر الأيوبى .

وفى هذه الفترة بالذات تخلى الكثيرون عن تعصبهم الاقليمى ، ولو كان لأسامة شيزر لنزل عنها ، وانه ليتم تصوير ذاته فى مذكراته بعبارات الاطراء .. التى تنم عن رضائه الكامل بالرجل الذى أرجع سنة الخلفاء الراشدين ، حتى أنه لو طلب منه - بعد اليوم - أن يشهد المعركة القادمة لفعل .

لكن ..

وفى قمة هذه السعادة ، وبينما الأمة كلها تحشد قواها ، يبلغه النبأ المفجع ..

ان السلطان غاضب عليه ويمتنع عنه لا يريد أن يلقاه ، بل طلب الى ابنه أن يبلغه بضرورة التزام ضيعته والا صادره فيها . ويهرع اليه العماد مطيبا خاطره ، وكذلك يفعل القاضى الفاضل ، ولكن أحدا لا يقدم له سببا لغضبة السلطان . ولقد تولته الدهشة فى أول الأمر ، ثم لما راح يفتش فى أعماقه وجد كثيرا من أسباب

الحقد والكيد ، واذ يقول له ابنــه قبل خروجه مــع السـلطان الى طبرية :

ــ أما تركت فينا أيام مصر شيئا يا مولاى ؟

ويجيبه بقنوط :

ــ بلى يا ولدى ..

فان السلطان اذن يكره فيه نزعة فاطميــة ، وكأن ما أذاعه تلميذه قد وصل اليه فآذاه ، لكنــه لم يختر اللحظة المناسبة النكبته . ولست أريد أن أعتب فان ما تمنيت أقرب منه الموت ، الا أنها ارادة الله أخرتنى الى أجلى المؤقت لى فماذا أفعل ؟

ويظل سؤاله بلا جواب مدة حتى يأتيه نبأ استيلاء السلطان على طبرية ثم تحــوله الى حطين بجوارها حيث قضى فى سـنة ١١٨٧/٥٨٣ على نحو عشرين ألف أفرنجى وأسر ملك أورشليم وصاحب الكرك الذى قتله بيده لقسم أخذه على نفسه (١) ، هناك يبعث بقصيدة له يقول فيها بعد استهلال رائع :

يا ناصر الاســلام حين تخاذلت
عنــه الملوك ومظهر الايمــان

بك قد أعز الله حزب جنــوده
وأذل حــزب الكفر والطغيــان

لما رأيت النــاس قد أغواهم الـ
ـشيطان بالالحــاد والعصــيان

جردت سيفك فى العــدا لا رغبة
فى الملك بل فى طاعة الرحمــان

---

(١) ابن الأثير ٩ : ١٧٥ وما بعدها .

لكنه لا يظفر بشيء ، وكأنه كان يجهل اذ ذاك أن السلطان المنتشى بكأس الانتصار كان يسير فى طريق مفتوحة الى النهاية التى يرجوها هو .. وبدلا من أن يفرح امتلأ قلبه بالأسى ، وبدا كأنه يرى وجه صلاح الدين مقنعا بالزراية والاحتقار ، وآه من كبرياء الملوك .. لقد عرف أن هناك ما هو أقسى من الموت وبعد الأهل مفارقة الأصحاب ، عرف أن الصمت المنطوى على الاهمال أقتل للنفوس من طعنة الخنجر أو ضربة السيف .

ومع ذلك لم يشأ أن يرفع راية التسليم ــ وهو المحارب القديم ــ الى نهاية مؤسية . فانه اذا كان قد قضى عليه وكان الحكم قاسيا واحتماله شديدا ، فكم أقر بفضله وتغنى بشعره وذاكره أخباره ، وهذا وحده كفيل بارجاع ماسلف من أيامه معه .

واذن فليمارس تجربة الانتصار ثانية .. ليصبر .. فانه لا يزال يستشعر الشبع يملأ جوانب نفسه ، وتمكن من أن ينهض على قدميه وسط العاصفة ويتماسك على مدى أيام أزمته بينا الجيوش الأيوبية الظافرة تزحف نحو أورشليم لتقضى على آخر معاقل الغاصبين .

غدا ينتهى كل شيء ، وما يرضى السلطان أن يقصين عنه الى الأبد ، والا فهل من المستطاع أن تكون أسبابه قد تقطعت منه ؟ ولم يمر بخاطره قط أنه كتب عليه أن يخسر هذه الجولة ، وأمعن فى الضلال فخيل اليه أن صلاح الدين سينفق أيام العيد ــ وقد كان الشهر رمضان ــ فى دمشق فشرع يكتب له هذا النوع من الشعر الذى يحبه . وقبل أن يكمل بيتا واحدا أصيب باغماءة نقل بعدها الى فراشه ، ثم لم يبرحه أبدا ، ذلك لأنه أسلم روحه بلا أدنى مقاومة حتى كأنه قد تعب من طول ما قاوم وأصر وعارك .

ولو كان تأخر أياما .. معدودة فقط لسمع أن حلمه الكبير تحقق ، فقد أرجع صلاح الدين القدس للعرب بعد احتلال استمر نحو ثمان وثمانين سنة ، ولما بلغه نبأ وفاته ـ وكان فى ٢٣ من رمضان سنة ١١٨٨/٥٨٤ ـ دمعت عيناه وأقبل على ابنه يعزيه ثم تقبل العزاء فيه من وجوه القوم وقال :

ـ مات اليوم شاعر الأمة وفارسها ..

وأمر بدفنه فى جبل قاسيون ، وشيعه مع ابنه العماد الاصبهانى ، ودخل قبره ـ وهو جانب نهر يزيد الشمالى ـ وقرأ عنده شيئا من القرآن وفى الطريق الى بيته كانت دموع الحزن عليه تختلط بدمع الغبطة بالنصر المبين .

فهرس

ملحوظه :

كل التفصيلات الواردة هنا مع المواقف الدقيقة ـ وبعضها على هيئة حوار ـ ثابت فى كتاب الاعتبار الذى ضمنه خبراته وصب فيه تجاربه مضيفا الى الوقائع التاريخية التى دعمت برصد مصادرها كثيرا من الحياة . وليس شك فى أن ذلك يضفى على تلك السيرة ـ برغم ايجازها ـ حقيقة اذا كان الفن لحمتها فان العلم سداها .

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ــ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ــ المعتمد بن عباد	على ادهم
٣ ــ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ــ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥ ــ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ــ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ــ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ــ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ــ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ــ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ــ مالك	أمين الخولى
١٢ ــ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ــ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ــ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ــ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ــ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ــ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ــ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ــ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ــ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ــ شكيب ارسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ــ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ــ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	انور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	احمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الاشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب		المؤلف
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	... ...	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	... ...	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	... ...	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	... ...	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	... ...	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	... ...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	... ...	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقرى	... ...	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	... ...	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	... ...	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	... ...	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	... ...	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى	... ...	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	... ...	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	... ...	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصير	... ...	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	... ...	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	... ...	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ على مبارك	... ...	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشاذلى	... ...	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفاطمى	... ...	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشى	... ...	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ـ يونس بن حبيب	... ...	د . حسين نصار
٧٦ ـ صقر قريش	... ...	د . عباده كحيلة
٧٧ ـ البيرونى	... ...	د . محمد جمال الفندى د . أحمد كمال زكى
٧٨ ـ عبد الكريم الخطابى	... ...	د . امام ابراهيم أحمد
٧٩ ـ أسامة بن منقذ	... ...	د . جلال يحيى